بوريس فيان

13.4.2019

على قبوركم

رواية

ترجمة: وليد أحمد الفرشيشي

بوريس فيان

على قبوركم

ترجمة: وليد أحمد الفرشيشي

مسكلياني

تمّت هذه الترجمة عن النصّ الفرنسي الأصليّ الأوّل
J'irai cracher sur vos tombes
Boris Vian

وبالاستئناس بالنصّ الإنجليزي الّذي كتبه بوريس فيان
نفسه متخفّيًا خلف اسم مستعار هو: فيرنون سوليفان
I Spit on Your Graves
by Boris Vian, Vernon Sullivan

الكاتب: بوريس فيان
عنوان الكتاب: على قبوركم
ترجمة: وليد أحمد الفرشيشي
مراجعة: منتصر الحملي

خط الغلاف: سمير بن قويعة
تصميم الغلاف: محمّد النبهان

ر.د.م.ك: 978-9938-24-054-2
الطبعة الأولى: 2019

جميع الحقوق محفوظة للناشر©

مسكيليانى للنشر والتوزيع
15 نهج أنقلترا تونس- تونس العاصمة
الهاتف: 21512226(216+) أو 93794788(216+)
الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com

مقدّمة[1]

حدثَ الأمرُ في شهر جويلية من العام 1946 عندما التقى «جان دل هالوين» بـ«فيرنون سوليفان» في واحد من تلك الاجتماعات الفرنسيّة الأمريكية. وبعدها بيومين، أحضر لهُ «سوليفان» مخطوطة روايته.

وإبّان ذلك، كان قد أخبرهُ بأنّه يرى نفسه رجلاً أسود اللون أكثر من كونه أبيض على الرغم من تجاوزه الخطّ[2]. ونحنُ نعلمُ أنّ الآلاف من «السّود» (على النحو الذي يعرّفهم وفقه القانون) كانوا يختفون من سجلاّت الإحصاء كلّ عام، وينتقلون إلى المعسكر المقابل. كان تفضيله للسّود قد ألهم «سوليفان» نوعًا من الاحتقارِ لـ «السّود الطيبين»، أولئك الذين يربّتُ البيضُ على ظهورهم في المؤلّفات الأدبيّة. وكان يرى أنّ المرء بوسعه أن يتخيّل سودًا «أشدّاء»

(1) في هذه المقدّمة، يدّعي بوريس فيان أنّه مترجم رواية «سوف أبصق فوق قبوركم» التي كتبها فيرنون سوليفان. وما سوليفان سوى الاسم المستعار الذي أمضى به فيّان عددا من رواياته، من ضمنها هذه الرواية التي كتبت على شاكلة «مدار السرطان» لهنري ميللر.

(2) تجاوز الخطّ: المقصود بها هنا أنّ جان دل هالوين الخلاسيّ ينتمي «رسميًّا» إلى العرق الأبيض.

مثل البيض أو حتّى يقابلَهم. وهو ما حاول إبرازه في هذه الرواية القصيرة التي اشترى «جان دل هالوين» حقوق نشرها كاملةً حالما سمع عنها من أحد أصدقائه.

لم يتردّد «سوليفان» كثيرًا في ترك مخطوطه في فرنسا، بعد أن أقنعتهُ المراسلاتُ التي أجراها مع الناشرين الأمريكيين بعقم أيّ محاولة للنشر في بلاده.

هنا، سوفُ يلومُ أخلاقيّونا المشهورون بعض الصفحاتِ على... واقعيّتها المفرطة قليلاً. ونعتقد أنّه من المثير للاهتمام أن نشير إلى الفرق الأساسيّ بين هذه الصفحات وروايات «ميلر»[1]، فميلر لا يتردّد البتّة في استدعاء المفردات الأكثر اندفاعًا. وعلى العكس من ذلك، يبدي «سوليفان» ميلاً إلى استخدام الإيحاء عبر التراكيب اللغويّة وبناء الجمل أكثر من اللّجوء إلى الكلمة الصريحة. وهنا تحديدا، هو يقتربُ أكثر من التقاليد اللاتينية في الكتابة الإيروسيّة.

علاوة على ذلك، نجدُ داخل هذه الصفحات التأثير البالغ الوضوح لـ «كاين»[2] (مع أن الكاتب لا يبحثُ عن تبرير استخدامه ضمير المتكلّم، بأيّة حيلة أو مخطوط أو أيّ شيء آخر، ذلك الضمير الذي أعلن الروائيّ المذكور أعلاه أنّه ضروريّ في مقدّمته الغريبة لـ «ثلاث ورقات من النّوع نفسه»[3]، وهي مجموعة من ثلاث روايات

---

(1) هنري ميللر (1980-1891): روائي ورسّام أمريكي.

(2) جيمس مالاهان كاين (1977-1892): روائي وصحافي أمريكي اشتهر بكتابة الروايات البوليسيّة.

(3) عنوان المجموعة بالانجليزية هي «three of a kind» وتعني حرفيّا «ثُلاثيّة» أي ثلاث

قصيرة تمّ جمعها مؤخّرًا بالولايات المتحدة الأمريكية في كتابٍ واحدٍ وترجمتها «سابين بيرتز» في فرنسا) وفضلاً عن تأثير كاين، كان للكتّاب المعاصرين أمثال «شايس»[1] وغيره من المنتصرين لأدب «الصدمة» تأثير مماثل. وفي هذا السّياق، يجب أن نعترفَ أنّ «سوليفان» كان أكثر ساديَّة من هؤلاء العظماء الذين سبقوه، لذلك لن يكون من المستغرب أن تُرفض روايته في أمريكا، بل نحنُ نراهن على أنّه سيقعُ حظرها في اليوم الذي يلي نشرها.

أمّا متنُ الرواية، فيجب أمقاربته بوصفه أحد مظاهر الرغبة في الانتقام الموجودة لدى عرقٍ ما يزال -مهما كانت الحجج التي نقدّمُها- معاقبًا ومرعوبًا، ثمّ بوصفه نوعا من التغريم[2] في مواجهة هيمنة البيض «الحقيقيين» -وفق طريقة رجال العصر الحجريّ الحديث في رسم الجواميس المضروبة بالسّهام لجذب فرائسهم إلى الفخاخ- وتجاهلا كبيرا للمصداقيّة وأخيرًا يجب مقاربته باعتباره مجموعة من التنازلات قُدّمت لإرضاء رغبات القرّاء.

وللأسف، فإنّ أمريكا، «بلد الأحلام»[3]، هي أيضا البلدُ المفضّلُ للتطهيريّين ومدمني الكحول والأشخاص الذين تعوّدوا أن يقولوا

ورقات لها نفس القيمة في لعبة البوكر. ترجمت المجموعة إلى الفرنسية تحت عنوان آخر هو «assurance sur la mort» أو «التعويض المزدوج».

(1) جيمس هايدلي شايس (1906-1985): من أشهر الروائيين الأنجليز المتخصصين في الروايات البوليسيّة.

(2) التغريم أو التعويذة exorcisme: هو طقسُ تمارسهُ الكنائس لطرد الأرواح الشريرة.

(3) في النص الأصلي Pays de cocagne: وهي تسمية لبلد خيالي يعتبره المستكشفون أرض الأحلام والفرص.

«ضع ذلك جيّدًا في الحسبان»[1]، وإذا كنّا في فرنسا نسعى جاهدينَ إلى أن نكونَ خلاّقين أكثر ممّن على الجانب الآخر من المحيط الأطلسي، فذلك لأننا لن نشعرَ بالقلق عندما نستغلّ بصفاقة وصفة أدبيّة أثبتت نجاعتها. وبكلّ الصراحة المطلقة، فإنّ هذه الرواية ليست سوى طريقة جيّدة، من بين طرق أخرى، يسعى المرء من خلالها إلى بيع كتاباته.

بوريس فيان

(1) ويقصد المؤلّف تقوقع المجتمع الأمريكي وحذره الكبير من الأفكار المناهضة لقناعاته، خاصة في قضيّة «السود» في تلك الحقبة التاريخية.

(1)

لا أحد كان يعرفني في «بوكتن». ولهذا السبّب، اختار «كليم» هذه المدينة. زيادة على ذلك، حتّى لو أردتُ أن أتراجع، لم يبق لديّ ما يكفي من الوقود كي أواصلَ التقدّم أبعد ناحية الشّمال. خمسُ ليترات تقريبًا هي كلّ ما بقي في الخزّان. وكلّ ما معي هو دولارٌ واحدٌ ورسالة «كليم»، ولا شيء آخر. لا يوجدُ شيء ذو قيمة في حقيبتي، لذلك لا داعي للحديث عنها. وكي لا أنسى: لديّ أيضا في صندوق السيّارة، مسدّس الصبيّ، مسدّسٌ صغيرٌ من عيار 6.35 ملم، بائسٌ ورخيص، كان ما يزالُ في جيبه عندما قدم إلينا مأمور الشرطة ليخبرنا بضرورة أن نحمل الجثّة معنا وندفنها. لا بدّ من القولِ إنّي كنتُ أعوّلُ على رسالة «كليم» أكثر من أيّ شيء آخر. من الضروريّ أن ينجح الأمر، بل إنّه سينجح لا محالة. نظرتُ إلى يديّ على مقود السيّارة، وإلى أصابعي وأظفاري. حقًّا، لا أحد بإمكانه أن يجد عيبًا بها. لا يوجدُ خطرٌ من هذه النّاحية. بالنّهاية، ربّما وجدتُ لي مخرجًا من كلّ هذا.

كان أخي «توم» قد تعرّف إلى «كليم» في الجامعة. لم يعاملهُ «كليم» كبقيّة الطلاّب، بل تعوّد أن يتحدّث إليه برحابة صدر حتّى

صارا يشربان ويخرجانِ معًا في سيّارة «الكادي» التي يملكها «كليم». وبفضل «كليم» كان الآخرون يتسامحون مع «توم». وعندما رحل ليحلّ محلّ والده على رأس المصنع، اضطرّ «توم» إلى التفكير في الرّحيل هو أيضًا فعاد للعيش معنا. لقد تعلّم الكثير ولم يجد صعوبة في العثورِ على وظيفة معلّمٍ في المدرسة الجديدة. بعد ذلك، دمّرت حكاية «الصبيّ» كلّ شيء. أمّا من ناحيتي، فكان لديّ ما يكفي من النفاقِ كي أحافظ على فمي مغلقًا في حين لم ير الصبيّ أيّ خطأ في الأمرِ. لهذا اهتمّ أبو الفتاة وأخوها بأمره.

هذا ما يفسّرُ أمر الرسالة التي أعطاني إيّاها أخي كي أحملها إلى «كليم». لم يكن ممكنًا أن أبقى في تلك المدينة، ولهذا طلب من «كليم» أن يجد لي عملاً غير بعيدٍ جدًّا، كي يتسنّى له أن يراني من حين لآخر، ولكن على مسافة تضمن ألاّ يتعرّفَ إليّ أحد. كان يعتقدُ أنّي، بملامحي وطباعي، سأحيا بمأمنٍ من كلّ شيء. لعلّه كان على حقّ ولكنّي ما زلتُ أتذكرّ «الصبيّ» رغم ذلك.

«مديرُ مكتبة في بوكتن»، تلك كانت وظيفتي الجديدة. ولقد تعيّن عليّ أن أتصل بالمدير السابقِ وأطّلع على سير العمل في غضون ثلاثة أيّام، إذ تمّ تعيينه على رأس مكتبة جديدة، أفضل من الأولى، بعد أن ارتقى في السلّم الوظيفي وهو الرّاغبُ في أن يصنع لهُ اسمًا في المجال.

كان الجوُّ لطيفا ومشمسًا في ذاك الشارع الذي أصبح يُسمّى «بيرل هابر ستريت». وعلى الأرجح أنّ «كليم» لم يعلم بالأمر لاسيّما أنّ الاسم القديم ظلّ موجودًا هو أيضًا على اللوحات الإرشاديّة.

كان رقم المتجر هو 270. أوقفتُ سيارتي «الناش» هناك مباشرة أمام الباب. وما إن دفعتُه حتّى ألفيتُ المدير يجلسُ وراء آلة تسجيل النقود، منهمكًا في نسخ الأرقام فوق كشوفات الجرد. هو رجلٌ في منتصف العمر، عيناه زرقاوان قاسيتان وشعره أشقر باهت. ألقيتُ عليه التحيّة.

- صباح الخير.

- صباح الخير. هل أساعدك بشيء؟

- نعم، هذه الرسالة لك.

- آه! إذن، أنت هو من يفترض بي أن أطلعَه على العمل هنا. أرني الرسالة.

أخذ الرسالة، وبعد أن قرأها، قلبها وأعادها لي.

- العملُ هنا ليس معقّدًا. هذا هو المخزون (وأشار حوله بحركة دائريّة). عمليّاتُ الجرد ستنتهي هذا المساء. أمّا عن عمليات البيع والإعلانات والبقيّة، فعليك أن تتّبع إرشادات مفتّشي المؤسسة والأوراق التي ستستلمها.

- هل المكتبة فرعٌ من سلسلة توزيع؟

- نعم. هي أحد الفروع.

قلتُ موافقا ومتسائلا في آن:

- حسنًا، ما نوع الكتب الأكثر مبيعا؟

- أوه، إنّها الروايات. الروايات السيئة تحديدًا ولكنّ هذا الأمر لا يعنينا. مبيعات الكتب الدينية ليست سيئة، وكذلك الكتب المدرسيّة. لا يوجد لدينا الكثيرُ من كتب الأطفال أو الكتب الجادّة، فأنا لم أحاول مطلقًا تطوير هذا الجانب.

- هل تقصد أنّ الكتب الدينيّة ليست كتبًا جادّة؟

مرّر لسانهُ على شفتيه.

- لا تقوّلني ما لم أقل.

ثم انفجر ضحكًا.

- لا تسئ فهمي، فهذا ما أعتقدُه أنا أيضًا.

- في هذه الحالة، دعني أقدّمْ لك نصيحة. لا تدع النّاس يعرفُون ذلك عنك، وعليك أن تذهب للاستماعِ إلى القسّ أيّام الآحاد، لأنّك إن لم تفعل فلن يكون لديك الكثيرُ من الزبائن، وفي هذه الحالة سيقومون بطردك.

- أوه، حسنًا. سأذهبُ إلى الكنيسة إذن.

- خذ (قال وهو يسلّمني ورقة) تحقّق من هذا. إنّها حسابات الشهر الماضي. الأمرُ بسيط جدّا. نحن نتلقّى كلّ الكتب من الشركة الأمّ. كلّ ما عليك الاهتمام به هو أن تجدول دخول الكتب وبيعها، وأن تنسخها في ثلاثة نظائر. هم يأتون كلّ خمسة عشر يومًا لتحصيل الأموال. وسيتمّ سداد أجرتك بواسطة صكّ بنكي مع نسبة مئويّة صغيرة.

قلتُ على الفور:

- أعطني الورقة.

أخذتُ الورقة وجلستُ على منضدة واطئة، تتكدّسُ عليها الكتب التي أخرجها الزبائنُ من الرفوف للاطلاع عليها، ولم يجد على الأرجحِ الوقت كي يعيدها إلى مكانها.

سألتهُ مرّة أخرى:

- ما الذي يمكنُ أن يفعلهُ المرءُ في هذه المدينة؟

- لا شيء. هنالك فتيات المجمّع التجاري[1] المقابل، وشرابُ البوربون في حانة «ريكاردو»، على بعد مرّبعين سكنيين من هنا.

بدا لي لطيفًا على الرغم من طريقته الفظّة في الكلام.

- كم مضى عليك هنا؟

- خمس سنوات. وما يزالُ أمامي خمسُ سنوات أخرى قبل أن أغادر.

- ثمّ ماذا بعد ذلك؟

- أنت فضوليّ.

---

(1) استعمل الكاتب مفردة الـ «drugstore» التي تترجم إلى «صيدليّة» في اللغة الفرنسية. إلاّ أننا اخترنا ترجمتها إلى «مجمّع تجاري»، إذ أنّ مفردة «drugstore» في الولايات المتحدة الامريكية (وهي الإطار المكاني لأحداث الرواية) تعني المجمّع التجاري وفيه، إضافة إلى الصيدلية، مقهى ومطعم ومحلّ لبيع التبغ والجرائد والكحوليات والعطور.

- لا تلمني. لماذا قلت لي ما يزالُ أمامي خمس سنوات قبل أن أغادر؟ أنا لم أسألك عن شيء.

ارتخى فمه قليلاً وضيّق عينيه.

- أنت محقّ. حسنًا، ما يزالُ أمامي خمسُ سنوات وأتقاعد من هذه الوظيفة.

- وماذا ستفعل حينئذٍ؟

- سأتفرّغُ للتأليف، تأليف الروايات الأفضل مبيعا ولا شيء غير الروايات الأفضل مبيعا. سأؤلّف روايات تاريخية، وروايات يتسنّى فيها للزنوج أن يضاجعوا النساء البيض دون أن يتعرّضوا للسّحل، وروايات عن الفتيات الصغيرات العفيفات اللائي يتمكنّ من أن يكبرن دون أن يعبث بهنّ واحدٌ من أبناء عالم الضواحي السفلّي القذر...

ثمّ ضحك وتابع:

- حسنًا، إنّها الرواياتُ الأفضلُ مبيعًا! علاوة على أنّها ستكونُ روايات جريئة ومبتكرة. من السهل أن تكون جريئًا في هذا البلد. ليس أمامك سوى أن تكتبَ ما يعرفهُ الجميع، وتعرّض نفسك إلى المشاكل بسبب ذلك.

قلتُ مؤيّدًا:

- ستنجحُ في ذلك.

- بالتأكيد، سأنجح. لدّي بالفعل ستّ روايات جاهزة.

- ألم تحاول نشرها قطّ؟

- لستُ صديقًا أو «عشيقةً» لأيّ ناشرٍ، زد على ذلك أنّي لا أملكُ ما يكفي من المال لأصرفهُ على النشر.

- إذن، ماذا ستفعل؟

- حسنًا، سيكون لديّ ما يكفي من المال بعد خمس سنوات.

- ستنجحُ في مسعاك بالتأكيد. قلتُ منهيًا الحوار.

خلال اليومين التاليين، كان هنالك الكثير ممّا يقتضي الإنجاز حتّى وإن بدا سير العمل داخل المتجر بسيطا بالفعل، إذ من الضروريّ تحديث قوائم الشراءات. ولقد قدّم لي «هانسن» -المدير السالف الذكر- نصائح مختلفة بخصوص الزبائنِ الذين دأب البعض منهم على المرور بانتظام لرؤيته ومناقشته في المسائل الأدبيّة. وكلّ ما يعرفونهُ منها يقتصرُ على ما يطلّعون عليه في «الساتورداي ريفيو»[1] أو في الصفحة الثقافيّة لصحيفة الولاية، التي يصلُ عدد النسخ المطبوعة منها إلى ستين ألف نسخة.

اكتفيت وقتئذٍ، بالاستماعِ إلى نقاشاتهم مع «هانسن»، محاولا أن أحفظ أسماءهم وأتذكّر وجوههم، إذ أنّ أهمّ شيء في عمل المكتبات -على وجه الخصوص- هو أن تنادي على الزبون باسمهِ بمجرّد أن يضع قدمهُ داخل المحلّ.

---

(1) Saturday Review: مجلّة أدبيّة أمريكيّة شهيرة كانت تصدرُ أسبوعيّا. بدأ إصدارها في العام 1924 وتوقفت نهائيّا عن الصدور في العام 1986.

أمّا مسألة السّكن فقد رتّبتها مع «هانسن»، إذ اتفقنا على أن آخذَ الغرفتين اللتين كان يشغلهما فوق المجمّع التجاري المقابل. وفي انتظار ذلك، أعارني بضعة دولارات لأتمكنّ من قضاء ثلاثة أيّام في الفندق، وحرص على دعوتي إلى مشاركته وجباته مرّتين في اليوم، حائلا بذلك دون ارتفاع ديني نحوهُ. لقد كان رجلاً لطيفًا. حتّى إنّي تعاطفت معه إلى حدّ مّا، لا سيّما مع قصّة الروايات الأفضل مبيعًا التي تشغل باله، بل وأصابني ذلك بالغمّ. فالمرءُ لا يكتبُ عملاً يحقّق أفضل المبيعات بتلك الطريقة، حتّى مع توفّر المال. ولكن كانت لديه موهبة وهو ما تمنيّته لهُ.

في اليوم الثالث، أخذني إلى حانة «ريكاردو» لتناول كأس قبل الغداء. كانت الساعة تشيرُ إلى العاشرة صباحًا، وعليه أن يغادر قبل الظهيرة.

لقد كانت الوجبة الأخيرة التي تناولناها معًا. لأبقى بعد ذلك وحيدًا في مواجهة الزّبائن، والمدينة أيضًا. كان عليّ أن أصمد. إنّها حقّا ضربة حظ أن أجد «هانسن». فنظرا لامتلاكي لدولار يتيم، كان يمكنُ أن أقضي ثلاثة أيّام متسكّعا هنا وهناك، لولا أنّي تلقيّتُ مساعدة كاملة من «هانسن»، وبفضلها بدأتُ حياتي من جديد.

كانت حانة «ريكاردو» واحدة من تلك الأمكنة المعتادة، النظيفة والقبيحة، العابقة بمزيج مضحك من الروائح، كروائح البصل المقليّ والفطائر. ووراء المنضدة شخص مستغرقٌ في قراءة الصحيفة، لم يلبث أن سألنا:

- كيف أخدمكما؟

أجابه «هانسن» وهو يوجّه إليّ نظرات متسائلة:

- نريد كأسي بوربون.

أومأتُ برأسي موافقًا.

قدّم لنا النادلُ الشرّاب في كأسين كبيرتين مع الثلجِ وشفّاطتين. علّق «هانسن» على ذلك قائلاً:

- أنا أتناولهُ دائما بهذه الطريقة. لا تعتقد أنّك مجبرٌ على الشّربِ بالشفّاطة.

- لا عليك.

- إذا لم يسبق لك أن شربت البوربون المثلج باستخدام الشفّاطة فلن يكون بإمكانك معرفة التأثير الذي يحدثه. لكأنّه لسان من نار يلسعُ حنكك. نار هادئة والإحساسُ بها فظيع.

قلتُ موافقًا:

- إنّها طريقة رائعة!

اكتشفت عيناي صورة وجهي المنعكسِ في المرآة. كنتُ ثملاً تمامًا، إذ أنّي لم أشرب منذ فترة طويلة بالفعل. فأخذ «هانسن» يضحك، قبل أن يقول:

- لا تدع ذلك يسكرك سريعا. للأسف، لن يطول بك الأمرُ حتّى تعتادهُ.

صمت برهة ثمّ واصل حديثه:

- هيّا، عليّ أن أعلّم عاداتي هذه لنادل الحانةِ القادمة التي سأشربُ فيها.

- يؤسفني أنّك سترحل.

ضحكَ وهو يجيب:

- إذا بقيتُ، فسيكونُ عليك أنت أن تغادر! لا، سيكونُ من الأفضل أن أرحل أنا. لقد قضيتُ أكثر من خمس سنوات هنا. يا الله، إنّها فترة طويلة!.

أنهى كأسه بجرعة واحدة وطلب كأسا ثانية مواصلاً الحديث:

- حسنًا، أثقُ في أنّك ستتدبرُّ أمرك.

ثمّ نظر إليّ من الأعلى إلى الأسفل قبل أن يقول:

- أنت لطيف. فيك شيء لم أستطع أن أفهم كنهه. إنّه صوتك.

ابتسمتُ دون أن أجيب. إذ بدا لي هذا الرّجل حادّ الذكاء. ولم يلبث أن قال:

- لديك صوتٌ ممتلئ جدًّا. هل أنت مغنّي؟

- أوه، أنا أغنّي في بعض الأحيان لتسلية نفسي.

لقد توقفتُ عن الغناء تماما. في الماضي، فعلتُ ذلك، ولكن قبل حادثة الصبيّ. كنتُ أغنّي لنفسي برفقة الغيتار، فأردّد أغاني البلوز لهاندي[1] وأغاني «نيو أورليانز» القديمة، وأغاني أخرى من تلحيني

(1) وليام كريستوفر هاندي (1873-1958): مغنّي وملحنّ بلوز أمريكي، يعدّ «أب البلوز».

على الغيتار، ولكني فقدتُ الرغبة في العزف تمامًا. كنتُ أحتاج إلى المال، بل إلى الكثير منه، كي أهتمّ بخططي القادمة.

قال «هانسن»:

- تستطيع الحصول على كلّ النساء بصوتك هذا.

رفعتُ كتفيّ لا مباليا، فأردف:

- ألا يعنيك هذا؟

ثمّ ضربني على ظهري وتابع:

- كلّ ما عليك القيام به هو جولة داخل المجمّع التجاري. ستجدهنّ كلّهنّ هنالك. لديهنّ نادٍ في المدينة، هو نادي «البوبي سوكرز»[1]. أنت تعرفهنّ، إنهّن أولئك الشابات اللائي يضعن جوارب حمراء ويرتدين سترات مخططة، ويكتبن الرسائل لفرانك سيناترا. المجمّع التجاري بالنسبة إليهنّ هو مقرّ القيادة العليا. أظنُّ أنّك رأيت البعض منهنّ بالفعل؟ لا، ذلك غير ممكن فأنت تقضي كامل وقتك في المتجر كلّ يومٍ تقريبًا.

أخذتُ أنا أيضًا كأس بوربون أخرى. فسرى المشروبُ عميقا في ذراعيّ وساقيّ وجسدي كلّه. في حانة «ريكاردو» لا توجدُ فتيات

(1) هو اسم يطلق على مجموعة من الفتيات والنساء، تتروح أعمارهنّ بين اثنتي عشر وخمسة وعشرين عامًا، معجبات بأغاني السوينغ والجاز، كنّ قد تميّزن في سنوات الأربعينيّات والخمسينيّات، بنوع من الملابس، قوامهُ التنورات القصيرة والجوارب القصيرة والأحذية المسطّحة.

«البوبي سوكرز» ولكنّي كنتُ أرغبُ فيهنّ حقّا. فهنّ صغيرات، أعمارهنّ بين الخامسة عشر والسادسة عشر، ولديهنّ نهودٌ مدبّبةٌ تحت سترات ملتصقة بأجسادهنّ. إنّهن يتعمّدن ذلك، أولئك القحاب، بل ويتقنّ فعله جيّدًا. هنالك أيضا الجواربُ المستقيمة بإحكام داخل الأحذية المسطّحة، والحاملة لألوان زاهية صفراء أو خضراء أو ما شابه ذلك، والتنانير الواسعة، والركب المستديرة. إنّهن يجلسن دائمًا على الأرض مباعدات بين سيقانهنّ وكاشفات عن سراويلهنّ الداخليّة البيضاء. نعم لقد أحببتُ ذلك ورغبتُ، كنتُ أرغبُ في فتيات «البوبي سوكرز».

كان «هانسن» ينظر إليّ. وبعد لحظات من الصمت قال لي:

- هنّ لا يمانعن من الذّهاب مع أيّ كان. وأنت لن تجازف كثيرًا، لديهنّ الكثير من الأماكن التي يمكنُ أن يأخذنك إليها.

- لا تعاملني كخنزير.

- أوه، لا! ما قصدتهُ هو أنهنّ سيأخذنك إلى أماكن الرقص والشرب.

ثمّ ابتسمَ، وذلك راجع دون شكّ إلى ما بدا على ملامحي من اهتمامٍ حتّى إنّه سرعان ما أضاف قائلاً:

- إنّهن ظريفات. سيأتين لزيارتك في المتجر.

- وماذا سيفعلن هنالك؟

- سيشترين منك صور نجوم السينما، وكلّ كتب التحليل

النفسيّ، صدفةً بالطبع. أقصد ما يخصّ الكتب الطبيّة. يبدو أنّ جميعهنّ يدرّسن الطبّ.

أجبتُ متذمّرا:

- حسنًا، سنرى ذلك.

كان عليّ أن أتظاهر بعدم الاكتراث لا سيّما أنّ «هانسن» وجّه الحديث إلى موضوعٍ آخر. وبعد ذلك، تناولنا الغداء معًا، ثمّ غادر حوالي الساعة الثانية بعد الظهر، وتركني وحيدًا أمام باب المتجر.

(2)

أعتقدُ أنّي عندما بدأتُ أشعرُ بالضيّق، كان قد مرّ على مكوثي بالمتجر أسبوعان لم أغادره فيهما البتّة وكان نسقُ المبيعات فيهما جيّدًا بفضلِ الاعلانات التجاريّة التي هيّأت السبيل إلى ذلك. ففي كلّ أسبوعٍ، ترسلُ المؤسسة الأمُّ، مع مجموعة الكتبِ المودعة، مطبوعات مصوّرة وملصقات لتُعرضَ في مكانٍ بارزٍ تحت الكتابِ المعنّي الموضوعِ على الرفّ بطريقة تجلب الانتباه. وقد كان كافيًا لي أن أقرأ، طوال ثلاثة أرباعِ الوقت، الملخّص الإشهاريّ وأن أفتح الكتاب على أربع أو خمس صفحات مختلفة كي أكوّنَ فكرة وافية للغاية عن مضمونه، وفي كلّ الأحوال، تتيحُ لي أن أجيب ذلك الزّبونَ البائسَ الذّي يسقطُ في فخّ هذه الخدع: الغلافُ المصوّر والملصق وصورة الكاتب والنبذة عن سيرته الشخصيّة. الكتب باهظة الثمّنِ، ولذلك ما يبرّرُه وهو أنّ الناسَ لا يهتمّون باقتناءِ الأدب الجيّد، بل يريدون قراءة الكتاب الّذي أوصاهم بقراءته أصدقاؤهم في النّادي، ذاك الكتاب الذي يتحدّثُ عنه الجميع، دون اهتمامٍ حقيقيّ بمحتواه. هناك كتب، كنتُ أتلقّى منها نسخًا زائدة، مرفوقة بمذكّرة توصي بعرضها في الواجهة، وبمطبوعاتٍ كي أقوم بتوزيعها. فأضعُ منها

رزمة قرب آلة تسجيل النقودِ، وأحشو بعضها في كلّ حزمة من الكتب، إذ لا أحد يرفضُ البتّة مطبوعة صقيلة الورقِ، أمّا تلك الجمل القليلة المكتوبة عليها، فهي كلّ ما يجبُ أن تقولهُ لذلك النوعِ من الزبائنِ في هذه المدينة. لقد اعتادت المؤسسة الأمُّ استخدام هذا النظامِ مع كلّ الكتبِ، حتى تلك الكتب الفاحشة قليلاً، التي تباعُ سريعًا في ظهيرة يوم عرضها.

لم أكن متضايقًا بالمعنى الصريح للعبارة، لكنّي وقد بدأتُ في تدبرّ أمري بطريقة آليّة، تتماشى وروتين العمل، أصبح لديّ ما يكفي من الوقت للتفكيرِ في بقيّة الأشياء. وذلك ما جعلني عصبيًّا، إذ أنّ كلّ شيء كان يسيرُ بطريقة جيّدة للغاية.

كان الجوُّ لطيفا. الصيفُ يشارفُ على النهاية، والمدينةُ تفوحُ برائحة الغبار. وهنالك عند أسفل النهر، يمكن للمرء أن ينعم ببرودة الظلّ تحت الأشجار. لم أكن قد خرجتُ بعدُ منذ وصولي، ولم تكن لدّي أدنى فكرة عن الريفِ المحيطِ بالمدينة. ولكنّي شعرتُ بالحاجة إلى بعض الهواء النقيّ، وبالأخصّ إلى شيء آخر ما انفكّ يشغلُ بالي: النّساء.

في الساعة الخامسةِ من تلك الليلة، بعدما أغلقتُ الستار الحديديّ، لم أعد إلى داخل المتجرِ كعادتي كي أشتغل تحت ضوء المصابيح الفلوريّة[1] بل أخذتُ قبّعتي، ووضعتُ سترتي على ذراعي، وقصدتُ المجمّع التجاري المقابل مباشرةً، فقد كنتُ أسكنُ فوقهُ تمامًا. وجدتُ

(1) المصابيح الفلوريّة هي مصابيح تحتوي على مادة الزئبق.

فيه ثلاثة زبائن: صبيّ في الخامسة عشر من عمره وفتاتان متقاربتان في السنّ، ألقوا عليّ نظرات شاردة ثمّ غرقوا مجدّدًا في كؤوسِ الحليب المثلّج. والحقّ أنّ رؤية الحليب المثلّج لوحدها كادت تشعرني بالغثيان. ولكن، لحسن الحظّ، كنتُ أحمل الترياقَ في جيب سترتي.

جلستُ أمام المشرب، على بعدِ كرسيٍّ من أكبرِ الفتاتينِ سنًّا، وعندما رأتني، النادلةُ، السمراءُ القبيحةُ جدًّا، رفعت رأسها في شرود. فقلتُ:

- ماذا لديكِ هنا دونَ حليب؟

- عصير الليمون. وعصير الليمون الهندّي أيضا، وعصير الطماطم والكوكا كولا.

- الجريب فروت، قلتُ موافقًا، ثمّ أضفتُ: «لا تملئي الكأس كثيرًا».

فتّشتُ في جيب سترتي ثمّ أخرجتُ قنّينتي.

إلاّ أنّ النادلة اعترضت في تكاسلٍ:

- الكحول ممنوع هنا!

أجبتها ساخرًا:

- لا بأس، إنّه دوائي!

ثمّ أضفت:

- لا تقلقي بشأن رخصتك...!

نقدتها دولارًا إذ كنتُ قد تسلّمتُ صكّي في الصباح، تسعين دولارًا في الأسبوع. فعلاً، لـ«كليم» معارف حقيقيون هنا. أعادت إليّ باقي النقود وتركتُ لها إكراميّة سخيّة.

لا يعدّ شربُ عصير اللّيمون الهنديّ ممزوجًا بالبوربون أمرًا دارجًا، ولكن على أيّة حال، هو أفضل من لا شيء. شعرتُ بالتحسّنِ. سأتخطّى الأمر. أنا بخير. لبث الأطفالُ الثلاثة يحدّقون فيّ. ففي نظرِ صبية كهؤلاء، رجلٌ في السادسة والعشرين من عمره هو رجلٌ عجوز. ابتسمتُ للصبيّة الشقراء الصغيرة. كانت ترتدي صدارا بلون زرقة السّماء مخطّطا دون ياقة وأكمامه مرفوعة إلى المرفقين، مع جوارب بيضاء داخل زوجي حذاءٍ بنعلين مطّاطينِ كبيرين. بدت لي لطيفة وذات صدر رائع، لا ريب أنّهُ صلبٌ، مثل ثمار الخوخِ الناضجة. لم تكن ترتدي حمّالة صدر، وهو ما أبرز حلمتيها من تحت القماشِ الصوفيّ. وابتسمت لي هي أيضًا. فبادرتها بالحديث:

- الجوُّ حارّ، أليس كذلك؟

أجابتني وهي تتمطّط:

- ومملّ للغاية.

كان بالإمكان رؤيةُ بقعتين رطبتين تحت إبطيها. ولقد أحدث ذلك فيّ شيئا ما. نهضتُ ووضعتُ خمسة سنتات في فتحة صندوق الموسيقى القريب من النافذة.

- هل تشعرين بالرغبة في الرقص؟، قلتُ وأنا أقتربُ منها.

- أوه! أظنّ أن ذلك سوف يقتلني!

التصقت بي بشدّة حتّى إنّي عجزتُ عن التنفّسِ. وغمرتني رائحتها وهي رائحةُ رضيعٍ حديث الاستحمام. لقد كانت رقيقة فسمحت لي ببلوغ كتفها الأيمن بيدي اليمنى. وإذ رفعتُ ذراعي وتركتُ أصابعي تنزلقُ تحت نهدها مباشرةً، نظر إلينا الشابّ والفتاة وشرعا بدورهما في الرقص على أنغام أغنية، «Shoo Fly Pie»، وهي أغنية قديمة ومشهورة لـ«دیناه شور»[1]. أمّا هي فراحت تدندنُ لحن الأغنية في الوقت نفسه. وحينما تفطّنت النادلة إلى رقصنا، رفعت رأسها عن المجلّة التي كانت بصدد مطالعتها، ثمّ سرعان ما عادت إليها.

لم تكن الفتاة الشّقراءُ ترتدي شيئًا تحت قميصها، وهو ما أدركته على الفور. ولقد سعدتُ لأنّ الأغنية انتهت، فلو تواصلت لدقيقتين إضافيتين لكنتُ فقدت التحكّم في نفسي. وبعد أن أفلتتني وعادت إلى مقعدها، تطلّعت إليّ وقالت:

- بالنّظر إلى أنّك رجلٌ كبير في السنّ، أرى أنّك لا ترقصُ بطريقة سيئة.

أجبتها:

- جدّي هو من علّمني الرّقص.

علّقت ساخرة:

---

(1) دیناه شور (199-1916): مغنية وممثلة ومقدمة برامج أمريكية معروفة.

- هذا واضح!

ثم أضافت:

- رقصك لا ينتمي إلى هذا العصر[1].

- ربّما بدوت لك ثقيل الحركة وأنت تراقصينني، ولكن بوسعي أن أعلّمك أشياء أخرى.

أغمضت عينيها نصف إغماضة وهي تقول:

- أشياء يفعلها البالغون؟

- هذا يتوقّفُ على تقديرك للأمور.

- يمكنني تخمينُ ما ترمي إليه...

- لا يوجدُ بالتأكيد ما أخطّط له. هل لدى أحدكم غيتار؟

قال الصبيّ وقد بدا كأنّه قد استفاق من غفوته فجأة:

- هل تعزف على الغيتار؟

أجبتهُ قائلاً:

- قليلاً.

قالت الصبيّة الأخرى:

---

(1) في النسخة الفرنسية، قام بوريس فيان بابتكار جملة «Pas hep pour un sou»، جملة حيّرت دارسي أثرهِ. فمفردة «Hep» ليست مفردة فرنسية في الأصل، وإنما هي ابتكارٌ لغوّي دخل معجم السود الأمريكيين، من مغني الجاز والبلوز، للتدليل على «مواكبة روح العصر» أو «الموضة».

- إذن، أنت تغنّي أيضًا.

- قليلاً.

قالت الصبيّة الأولى متضاحكة:

- صوتهُ يشبهُ صوت «كاب كالواي»[1].

بدت مستاءة لرؤية صديقيها يتحدّثان معي. فقرّرت أن أنفّذَ خطّتي بسلاسة. وفي الحال، قلتُ وأنا أنظرُ إليها:

- خذوني إلى مكانٍ يوجد به غيتار وسأريكم ما يمكنني فعله. طبعًا أنا لا أدّعي أنّي مثل «وليام كريستوفر هاندي»[2] ولكنّي أستطيعُ أن أعزف البلوز.

تطلّعت إليّ ثمّ قالت:

- حسنًا، سنذهب إلى منزل «بي. جي».

- هل يملكُ غيتارًا؟

- بل تملكُ غيتارًا، اسمها «بيتي جين».

قلتُ متضاحكًا:

- وماذا لو كان الاسمُ هو «باروخ جونيور».

- حسنًا، إنّها تسكنُ قريبًا من هنا. تعالوا!

---

(1) كاب كالواي (1907-1994): قائد أوركسترا ومغنّي جاز أمريكي.

(2) وليام كريستوفر هاندي (1873-1958): مغني وعازف بلوز أمريكي يطلق عليه «أب البلوز».

قال الصبيّ:

- هل سنذهبُ الآن؟

فأجبته:

- ولم لا؟ هي بحاجة إلى أن تقتنع بما ذكرتهُ لكم.

حينئذٍ قال الصبيّ مشيرًا إلى الفتاة التي راقصتها:

- اسمي «ديك» وهذه «جيكي».

قالت الصبيّة الأخرى:

- وأنا «جودي».

- وأنا «لي أندرسون» مديرُ المكتبة المقابلة.

قالت «جيكي»:

- نحنُ نعلمُ ذلك. فالجميعُ يعرفُ من تكون منذ أسبوعين.

قلتُ متسائلاً:

- هل يعنيكم الأمرُ إلى هذه الدرجة؟

قالت «جودي»:

- بالتأكيد، فنحنُ هنا نفتقدُ إلى الرّجال.

خرجنا جميعًا على وقع احتجاجات «ديك». بدوا متحمّسين جدًّا. كان ما يزال لديّ ما يكفي من «البوربون» لإثارتهم إذا تطلبّ الأمرُ ذلك.

وما أن خرجتُ حتّى قلتُ لهم: «سأتبعكم».

كانت سيّارة «ديك»، وهي من طراز سيارات «كرايسلر» القديمة، مركونة أمام الباب. أركبَ الفتاتين في الأمام وهيّأتُ أنا لنفسي مكانًا في المقعد الخلفيّ. بعد ذلك، سألتهم:

- كيف تشغلون أوقاتكم يا شباب؟

انطلقت السيّارةُ في الحال، بينما جلست «جيكي» على ركبتيها فوق المقعد، مديرة وجهها ناحيتي كي تجيبني.

- نحنُ نعمل.

قلتُ لها ملمّحًا:

- هل تدرسون؟

- هذا وأشياء أخرى....

فأضفتُ وأنا أرفعُ صوتي قليلاً بسبب الرّيحِ:

- ماذا لو انتقلتِ هنا إلى جانبي. سيكون بإمكاننا أن نتحدّث بشكل أفضل.

تمتمت ساخرة:

- نعم، على الأرجحِ...

ومرّة أخرى، أغمضت عينيها نصف إغماضة. لا ريب أنّها التقطت تلك الحركة من أحد الأفلام.

- أنت خائفة من الجلوس إلى جانبي، أليس كذلك؟

- كلّا!.

أمسكتها من كتفيتها وقمتُ بدحرجتها عبر الفراغِ بين المقاعدِ.

- أوه، أنتما الاثنان، لديكما طريقةٌ غريبة في الحديث، قالت «جودي» وهي تستديرُ ناحيتنا.

كنتُ بصدد تثبيت «جيكي» على يساري وقد تدبّرتُ أمري كي أمسكها من الأماكنِ المناسبة. ولقد جرى الأمرُ بطريقة جيّدة، إذ بدت وكأنّها فهمت ما كنتُ أرمي إليه. فأجلستها على المقعد الجلديّ وأحطتُ رقبتها بذراعي، قائلاً:

- اهدئي الآن وإلاّ قمت بصفعِ مؤخّرتك.

- ماذا لديك في تلك الزجاجة؟

كنتُ قد وضعتُ سترتي فوق ركبتي، فانزلقت يدها تحتَ القماشِ ولا أعرفُ إن كانت فعلت ذلك متعمّدة أم لا، ولكنّها في كلّ الاحوال، عرفت كيف تصيبُ هدفها جيّدًا.

قلتُ وأنا أسحبُ يدها:

- لا تتحرّكي! سأعطيك القليل من الشراب.

نزعت السدّادة المصنوعة من معدن النيكل، وأعطيتها القنّينة فتناولت منها جرعة كبيرة.

قال «ديك» محتجّا:

- لا تشربيها كلّها!

كان يراقبنا عبر مرآة السّيارة الخلفيّة.

ثمّ أضاف:

- «أندرسون»، أيّها التمساحُ العجوز، مرّر لي القنّينة.

- لا تخف! هناك المزيدُ من الشراب.

كان يمسك المقود بيدٍ ويضربُ بالأخرى الهواء في اتجاهنا، ما دفع «جودي» إلى أن تصيح معترضة:

- على رسلك. لا نريدُ أن نتعرض إلى حادثٍ بسببك.

التفتُّ إليها قائلاً:

- أنتِ هي إذن العقل الهادئ لهذه العصابة. ألا تفقدين أبدًا رباطة جأشك البتّة؟

- مطلقًا.

قبضتُ على القنينة بينما كان «ديك» يعيدها لي. وعندما سلّمتها لي مجدّدا كانت فارغة.

قلتُ لها مشجّعًا:

- حسنًا، هل تشعرين بأنّك أفضل الآن؟

- أوه!... لم يكن ذلك سيّئًا...، قالت.

رأيتُ الدموع في عينيها ولكنّها كانت متماسكة على نحو جيّد، باستثناءِ صوتها الذي بدا مختنقًا قليلاً.

صرخت «جيكي»:

- اللعنة! لم تتركوا لي شيئا.

قلتُ مقترحًا:

- سنذهبُ لشراء المزيد ولكن علينا أن نمرّ أوّلاً كي نأخذ الغيتار ثم نذهب إلى حانة «ريكاردو».

قال الصبيّ:

- أنت محظوظ. لا أحد يريدُ أن يبيع لنا الكحول.

أجبته ساخرًا:

- هذا ما تجنونهُ بسبب صغر السنّ.

قالت «جيكي» متنمّرة:

- لسنا صغارًا إلى هذا الحدّ.

طفقتْ تتململُ ثمّ جلست بطريقة لم يبق لي بعدها سوى أن أشبّك أصابعي كي أشغل نفسي. وإذ توقفتْ السيارة فجأة، تركتُ يدي تسقطُ بإهمالٍ على ذراعها.

حينئذٍ قال «ديك»:

- سأعود.

خرج من السيّارة وركض في اتجاه المنزل الواقع ضمن صفٍّ من المنازل، داخل مجمّعٍ سكنيّ، بدا من الواضحِ أنّ مقاولا واحدا قد

بناه. وسرعان ما ظهر «ديك» مجدّدًا عند الشرفة ممسكًا بغيتارٍ داخل غمدٍ لمّاعٍ ثمّ أغلق الباب وراءه وبثلاث قفزات، التحق بالسيّارة. ثمّ وجّه الحديث إلينا:

- «بي. جي» ليست في المنزل. ماذا نفعل؟

- سنعيدهُ إليها في ما بعد. هيّا اركب وقد السيّارة إلى حانة «ريكاردو» كي أتمكنّ من ملء هذا الشيء».

قالت «جودي» ساخرة:

- ستحظى بسمعة جيّدة!.

أوضحتُ لها الأمر قائلاً:

- لستُ قلقا بهذا الشأن. سيفهمُ الجميع على الفورِ أنّكم أنتم من جرّني إلى عربداتكم البرّية.

عدنا من حيثُ أتينا ولكنّ الغيتارَ ضايقني. وبعد برهة طلبتُ من الصبيّ أن يتوقّف على بعد مسافةٍ من الحانة ونزلتُ لأملأ القنينة. اشتريتُ واحدة إضافيّة والتحقتُ بالمجموعة. كان «ديك» و«جودي» جالسين كلّ على ركبتيه على المقاعد الأمامية وهما يتحدثانِ بحماسٍ مع الشقراء.

- ما رأيك يا «لي»، هل نذهب للسباحة؟، تساءل الصبيّ.

- موافق. هل تعيرني سروالاً داخليًّا؟ فأنا لا أحملُ شيئا معي...

- أوه، سنتدبّرُ الأمر.

شغّل السيّارة وانطلقنا إلى خارج المدينة. وسرعان ما انحرف داخل طريق جانبيّة، عريضة إلى حدّ يكفي لتعبر منها سيّارة الكريسلر إلاّ أنها تفتقرُ إلى التهيئة افتقارًا فظيعًا. بل إنّها لم تكن مهيّأة على الإطلاق.

قال «ديك» مؤكّدا:

- لدينا مكانٌ رائعٌ نسبحُ فيه.

ثمّ أضاف:

- لا أحد يأتي إليه مطلقًا! زد على ذلك منسوب المياه فيه مرتفع!

- هل تعيشُ فيه أسماك السلمون المرقّط؟

- أجل. هناك الحصى والرمال البيضاء أيضا. لا أحد يأتي إلى هنا مطلقا. نحنُ فقط من نتّخذ هذا الطريق.

- هذا واضح!

أجبتهُ وأنا أشدُّ على فكّيّ وقد أحسستُ بأنه يكادُ ينخلع من مكانهِ مع كلّ اهتزازة في الطريق، ثمّ أضفتُ:

- عليك أنّ تقايضَ هذه السيّارة بشاحنة بيلدوزر.

قال موضّحا:

- إنّ جزءًا من المتعة يكمنُ هنا. فهذه الطريق تمنعُ النّاسَ من التطفّلِ بوقاحة على مكاننا.

زاد من سرعة السيّارة ففوّضتُ أمر عظامي إلى خالقي. ثمّ

انعطفت الطريقُ فجأة، وبعد ذلك بمائة وخمسين مترًا توقّفنا. لم يكن هنالك سوى مجموعة من الأجمات. وكانت سيّارة الكرايسلر قد استقرّت مباشرة أمام شجرة قيقب كبيرة. قفزت «جودي» إلى الخارج وتبعها «ديك». نزلتُ أنا بعدهما ثمّ انتزعتُ «جيكي» من مقعدها. كان «ديك» قد أخذ الغيتار وسبقنا. تبعتهم بإصرار عبر ممرٍّ ضيّقٍ تحت الأغصان قبل أن نجد أنفسنا فجأة أمام النهر البارد والصافي مثل كأس من «الجين». كانت الشمسُ مائلة ولكنّ الحرارة ظلّت مرتفعة. وهناك جانب من المياه يتموّجُ في الظلّ، أمّا الآخرُ فيلتمعُ برفقٍ تحت الأشعّة المائلة. وهناكَ أيضا أعشابٌ سميكة، جافّة وشاحبة تتدلّى حتّى الماء.

- هذا المكانُ ليس سيئًا على الإطلاق، قلتُ موافقًا. هل عثرتم عليه بمفردكم؟

- هل ترى أننا حمقى إلى هذا الحدّ، قالت «جيكي» قبل أن أتلقى مدرة كبيرة من التراب الجاف على رقبتي.

قلتُ مهدّدًا وأنا أربّتُ على جيبي كي أعطي تأثيرًا أكبر لكلماتي:

- إذا لم تحسني التصرّف فلن تحصلي على المزيد من الحليب.

- أوه، لا تغضب منّي يا مغنّي «البلوز» القديم. وقبل كلّ شيء، أرني ما يمكنك القيامُ به.

سألتُ «ديك»:

- أين السروال الداخليّ؟

- أنت لا تحتاجهُ، فلا أحد يأتي إلى هنا.

استدرتُ. كانت «جودي» قد نزعت قميصها بالفعل. وبدا واضحًا أنّها لا ترتدي الكثير تحته. انزلقت تنورتها أسفل ساقيها وفي لمح البصر، ألقت حذاءها وجوربيها ثمّ تمدّدت على العشب عارية تماما. لا شكّ أنّ ملامحي حملت تعبيرًا غبيّا لأنّها ضحكت منّي بطريقة متهكمة كادت تفقدني السيطرة على نفسي. ثمّ قدم كلّ من «ديك» و«جيكي»، عاريين أيضا، واستلقيا إلى جوارها. شعرتُ بالإحراج لسخريّتهم منّي، لكنّ ذلك لم يمنعني من ملاحظة مدى هزال الصبيّ الذي برزت أضلاعه تحت جلدٍ سمَّرتهُ أشعّة الشمس.

- حسنًا، لا أرى داعيًا للتحلّي بالأخلاق، قلتُ.

تعمّدتُ أن أتباطأ إذ كنتُ أعرفُ التأثير الذي يحدثهُ مرأى جسدي وهو عريان، والحقّ أني تركتُ لهم الوقت الكافي كي يكتشفوا ذلك وأنا أتعرّى. وبعد أن اقترن قيامي بحركة تمطّط بإصدار أضلعي طقطقة ملفتة، جلستُ بالقرب منهم. ولئن لم أكن قد هدأتُ بعدُ إثر مناوشاتي الصغيرة مع «جيكي»، فإنّي لم أبذل جهدًا لإخفاء أيّ شيء. وأعتقدُ أنّهم كانوا ينتظرون أن أفصح عمّا يعتملُ بداخلي من مشاعر.

أمسكتُ الغيتار. كان من طراز «إيديفون» ذي النوعية الممتازة. ولأني لم أشعر بالرّاحة لفكرة أن أعزف جالسًا على الأرض، قلتُ لـ«ديك»:

- هل تمانع لو ذهبتُ لأجلب مقعد السيّارة؟

- سأذهبُ معك. قالت جيكي، ثمّ هرعت مسرعة كسمكة أنقليس[1] بين الأغصان.

وسط الشجيرات التي تغمرها الظلالُ الداكنة، أحدثت فيّ رؤية ذلك الجسد الصبياني وذلك الوجه الشبيه بوجه نجمة سينمائيّة صاعدة، تأثيرًا غريبًا. فوضعتُ الغيتار وتبعتها. كانت قد سبقتني وعندما وصلتُ إلى السيّارة اعترضتني عائدة وهي تحملُ المقعد الجلديّ الثقيل.

فقلتُ لها:

- ناوليني المقعد!

- دعني وشأني يا طرازان!

لم ألقِ بالاً إلى احتجاجاتها وأمسكتها من الخلف، مثل همجيّ. أفلتت مقعد السيّارة وتظاهرت بالاستسلام وقد أدركت ما أفكّر فيه، وبعد ذلك، كما لو أنني أمسكتُ بأنثى قرد، فاجأتني وشرعت تقاوم بأقصى ما تستطيع حتّى إنّي قد تملّكني الضحك. لقد أحببتُ ذلك. في تلك البقعة، كان العشبُ عاليًا وناعمًا مثل مرتبة هوائيّة. وإذ انزلقتُ على الأرض وانضممتُ إليها، تقاتلنا مثل متوحّشين. كانت بشرتها مُسْمَرّةً إلى حدود حلمتي نهديها، دون تلك العلامات التي تخلّفها حمّالة الصدر، وغالبًا ما تشوّهُ أجساد الفتيات العاريات. بدت ناعمة مثل حبّة مشمش وشبيهة في عريها ببُنيّة صغيرة، ولكن عندما نجحتُ

(1) الأنقليس: هو أحد أنواع الثعابين المائيّة.

في تثبيتها تحتي، أدركتُ أنّها تعرفُ أكثر ممّا تعرفهُ بنيّة صغيرة. لقد أعطتني أفضل عيّنة من المهارات وقد كان آخر عهدٍ لي بها منذ أشهر طويلة. شعرت أصابعي بملمس خصرها الناعمِ والمحفور وعندما نزلت إلى الأسفل قليلاً، تلمّستُ مؤخّرتها الصلبة كثمار البطيخ الأحمر. ولقد استمرت العمليّة عشر دقائق تقريبًا. تظاهرت في نهايتها بأنّها غفت، وبينما كنتُ أترك لنفسي العنان، أفلتتني مثل كيس من البطاطا الساخنة، وهربت منّي في اتجاه النهر. فالتقطت مقعد السيّارة وعدوتُ خلفها وهي تندفعُ نحو حافّة النهر وتقفز دون أن تخوض في الماء.

– هل بدأتما العوم فعلاً؟

كان ذلك صوت «جودي» المنهمكة في مضغِ أغلوجَ شجرة صفصاف، وقد استلقت على ظهرها، واضعةً رأسها تحت يديها، بينما «ديك»، المتمدّدُ إلى جانبها، يداعبُ فخذيها. كانت إحدى القارورتين مطروحة على الأرض ومقلوبة. ولمّا رأت نظرتي المصوّبة نحوها، قالت ضاحكة:

– نعم، إنّها فارغة! لقد تركنا لكما واحدة...

في الجانب الآخر من النهر، كانت «جيكي» تخوضُ في الماء. فتشتُ سترتي وأخذتُ القارورة الثانية ثمّ قفزتُ إلى الماء. وجدت الماءَ دافئًا ما أشعرني بأنّي في حالٍ أفضل. ثمّ سبحتُ بسرعةٍ فائقة والتحقتُ بها وسط النهر. كان عمقُ الماء يناهزُ المترين ولكننا لم نشعرُ تقريبًا بأيّ تيّار مائيّ تحتنا.

سألتها وأنا أضرب الماء بيدٍ واحدة كي أحافظ على توازني:

- هل تشعرين بالعطش؟

- أنت تمزح بالتأكيد. إنّك تشعرني بالإرهاق بحركاتك التي تشبهُ حركات راعي بقر فاز لتوّهِ بمسابقة «الروديو»[1].

- تعالي! حاولي أن تسبحي على ظهرك.

أذعنت واستلقت على ظهرها، لأنزلق تحتها، لافّا ذراعي حول جذعها، ومناولاً إيّاها القارورة باليد الأخرى. وما إن أمسكتها حتّى تركتُ أصابعي تنزلقُ على فخذيها. ولم ألبث أن باعدتُ بينهما برفقٍ وباشرتها مجدّدًا في الماء، وقد تركت نفسها لي. لقد كنّا واقفين تقريبًا في الماء ونكادُ لا نتحرّك إلاّ بالقدر الذي يحولُ دون نزولنا إلى القاع.

(1) رياضة شعبية في غرب الولايات المتحدة الامريكية. تقومُ فعالياتها على جملة من الأنشطة كركوب الجواد المسرج وغير المسرج وركوب الثيران والبراميل وغيرها.

(3)

لقد استمرّ الأمرُ على ذاك النحوِ إلى حدود شهر سبتمبر. كانت مجموعتهم تضمّ خمسة أو ربّما ستّة صبيان آخرين، بنات وأولاد: «بي. جي»، صاحبة الغيتار، وهي صبيّة قبيحة ولكن بشرتها ذات رائحة عطرة، و«سوزي آن»، شقراء أخرى، أكثر امتلاءً من «جيكي»، ثمّ فتاة كستنائية الشعر وتافهة، لا تتوقف عن الرقصِ طيلة اليوم. وكان الأولادُ حمقى مثلما تمنيّت. لم أكرر مجدّدًا خطأ مغادرة المدينة برفقتهم كي لا يؤثّر ذلك على سمعتي في المنطقة فلبثنا نلتقي قرب النهر ولقد حافظوا هم على سرّية لقاءاتنا، لأنّي كنتُ مصدرًا آمنًا لتزويدهم بقوارير «البوربون» و«الجين».

حظيتُ بكلّ الفتيات، الواحدة تلو الأخرى. وكان الأمرُ سهلاً جدّا إلى حدٍّ كاد يصيبني بالغثيان لا سيّما أنّهنّ يفعلن ذلك بسهولة وانتظام وكأنّهن بصدد ممارسة أحد طقوس النظافة، كتنظيف أسنانهنّ مثلاً. كنّ يتصرّفن مثل عصابة من القردة، شبقات ونهمات وصاخبات وسافلات، الأمرُ الذي كان يفي بحاجتي تماما.

وغالبًا ما كنتُ أعزفُ الغيتار لأجلهم، ولقد كفاني هذا إلى

حدّ مّا حتّى وإن لم أتمكنّ من صفع مؤخّرات كلّ هؤلاء الصبيان بيدٍ واحدة وفي الوقت نفسه. لقد علّموني رقصات الـ«جيتربوغ» والـ«جيف»[1]، ولم أنفق الكثير من الوقت كي أصبح أفضل منهم. ولم يستطيعوا أن يفعلوا أيّ شيء حيال ذلك أيضا.

وعلى الرغمِ من كلّ تلك الأمور، حدثَ أن فكّرتُ مجدّدًا في الصبيّ وعانيتُ من مشاكل في النوم. كنتُ قد رأيتُ «توم» مرّتين، بدا لي فيهما متماسكًا. فلا أحد يتحدّثُ عن القصة التي حدثت. لقد تركهُ النّاسُ وشأنهُ لينغمس في التدريس، أمّا أنا، فلم يروني كثيرًا. زد على ذلك، قام والدُ «آن موران» بإرسال ابنته إلى جامعة المقاطعة وتابع حياتهُ مع ابنه. ولمّا سألني «توم» عمّا إذا كان كلّ شيء على ما يرام، أجبتهُ بأنّ حسابي البنكيّ فيه مائة وعشرون دولارًا.

لم أكن أصرفُ مالي على أيّ شيء آخر عدا الكحول، وكانت معدّلات بيع الكتب عالية، ما جعلني أعوّلُ على ارتفاع المبيعات آخر السنة. لقد نصحني «توم» بعدم إهمال واجباتي الدينية، وهو واحدٌ من الأمور التي لم أشغل بالي بها ومع ذلك نجحتُ في التصرّف بطريقة تحولُ دون تفطّن النّاس إلى لامبالاتي تلك أو إلى سائر أفعالي الأخرى. كان «توم» يؤمن بالله أمّا أنا فأكتفي بالذّهاب إلى القداس يوم الأحد، مثل «هانسن»، رغم إيماني بأنّ المرء لا يمكن له أن يظلّ فطنًا ومؤمنا بالله في الآن نفسهِ، وبأنّه يتعيّنُ عليّ أن أكون فطنًا.

---

(1) أنواع من الرقص المعروفة في عالمي «الجاز» و«البلوز».

عندما أغادرُ الكنيسة، ألتقي بأفراد المجموعة قرب النهر وأتبادل الفتيات مع الصّبيان بالتواضع نفسه الذي يميّزُ قطيعًا من القردة في حالة اهتياج. حقًّا هذا ما كنّاهُ وإنّي لأجزمُ بذلك. ثمّ انقضى الصيفُ وعادت الأمطارُ إلى الهطول.

غالبًا ما كنتُ أتردّد على حانة «ريكاردو». ومن حينٍ إلى آخر، أمّرُ على المجمّع التجاري لتبادل أطراف الحديث مع تلك القطط التي تلازمُ المكان[1]، والحقيقة، أنيّ قد أتقنتُ رقصة «الجيف» أكثر منهم، وكأنّ الرقص يسري في دمائي. ثمّ بدأ خليطٌ من ميسوري «بوكتن» يعودون من عطلاتهم، قادمين من «فلوريدا» و«سانتا مونيكا» وغيرهما. ولئن اسمرّوا واشقرّت شعورهم، فإنّهم لم يبلغوا الحدّ الذي بلغناهُ نحنُ من بقينا مرابطين قرب النهر. ولقد أصبح المتجرُ أحد الأمكنة المفضّلة التي يلتقونَ فيها.

هؤلاء لم يكونوا قد تعرّفوا إليّ بعد، ولكنّي كنتُ أملك الكثير من الوقت ولم أستعجل الأمور.

---

(1) وردت الجملة حرفيًّا في النسخة الفرنسية كما يلي «pour tailler la carpette avec les chats du coin» أما في النسخة الإنجليزية التي ترجمها بوريس فيان نفسه فجاءت هكذا «to cut a rug»، وهو ما يحيلُ إلى ابتكار لغويّ لدى الروائي الفرنسي، إذ قام بفرنسة الكلمة الإنجليزية، لتعني الجملة بالنهاية «تبادل أطراف الحديث» مع «قطط المكان» أيّ رواد المجمع التجاري المرابطين هناك.

(4)

ثمّ عاد «ديكستر» أيضًا. وقد سبق أن حدّثوني عنه إلى حدّ كاد يصيبني بالجنون. كان يسكنُ أحد أفخم المنازلِ في أجمل حيّ بالمدينة. وعلى عكس والديه اللّذين بقيا في «نيويورك»، اضطرّ هو إلى الإقامة في «بوكتن» طوال العام، بسبب ضعفٍ في رئتيه. «بوكتن» هي مسقط رأس عائلتهِ، وهي مدينة يمكنُ للمرء أن يزاول دراستهُ فيها مثلها مثل أيّ مدينة أخرى. كنتُ أعرف بالفعل سيارة «ديكستر»، طراز «باكارد»، وأعرفُ أيضا نوادي الغولف التي يرتادها، ومحطته الإذاعيّة وقبو منزله وحانتهِ وكأنّي عشتُ طيلة حياتي في بيته. لم أصب بخيبة أملٍ عندما رأيتهُ. إذ كان حقّا ذلك الوغد الصغير القذر على نحوٍ يطابقُ ما افترضتهُ تماماً، فهو هزيلٌ، أسمر حتّى ليبدو هنديّا إلى حدّ ما، بعينيه السوداوين الماكرتين وشعره المجعّدِ وفمه الدقيق الذي يعلوه أنف معقّف. له يدان فظيعتان، وضخمتان تنتهيان بأظفارٍ كأظفار جرذٍ، عريضة أكثر منها طويلة، وصلبة كما هي الحال مع شخصٍ يعاني من تدهورِ صحّتهِ.

صار الجميعُ يتحلّقون حول «ديكستر» مثلما يتحلّق قطيع من الكلاب حول قطعة كبد. وكنتُ قد فقدتُ بعضا من أهميّتي كمزوّدٍ

للكحول، ولكن بقي لي الغيتار، وما أقدّمه لهم من حيل الرقص النقريّ[1] التي لا يعرفونها. كان لديّ الكثيرُ من الوقتُ وكلّ ما كان ينقصني هو أن أقعَ على صيدٍ يستحقّ. لقد ترسّخت قناعتي بأنّي سأعثرُ عمّا أبحثُ عنه وسط عصابة «ديكستر»، منذ أن بدأت أحلم بالصّبيّ كلّ ليلة. أمّا «ديكستر» نفسه فقد أعجب بي مع أنّه من المفترض أن يكرهني بسبب عضلاتي وقامتي وغيتارتي أيضا، لكنّي خمّنتُ أنّ ذلك ما جذبهُ، إذ كان لديّ كلّ ما ينقصه. أمّا هو، فله المال حتّى بدونا وكأنّنا خلقنا لكي نتفاهم لاسيّما وقد أدرك أنّي مستعدٌّ لتجربة الكثير من الأمور. ولكنّه لم يشكّ فيما كنتُ أبحثُ عنهُ فعلاً، لا، لم يبلغ ذلك الحدّ. هل كان بوسعه أن يخمّنَ ذلك أكثر من الآخرين؟ أعتقدُ ببساطة أنّه خيّل إليهِ أنّه بمساعدتي سيتسنّى له تنظيمُ سهرات العربدة، خصوصا تلك العربدات المبالغ فيها. وهو في ذلك لم يكن مخطئًا.

كانت المدينة على وشك الامتلاء، وقد شرعتُ في بيع الكتب المدرسيّة خصوصا كتب العلوم الطبيعيّة والجيولوجيا والفيزياء وأشياء كثيرة أخرى من هذا القبيل. راح أفرادُ مجموعتي يرسلون لي أصدقاءهم الذين يدرسون معهم وما استرعى انتباهي أنّ الفتيات تحديدًا سيئات للغاية. ففي سنّ الرابعة عشر، كنَّ مستعدّات فعلاً لأن يتركن أنفسهنّ للمداعبات، ومع ذلك لا تجدُ الواحدة منهنّ بدّا من أن تبحث جاهدةً عن الذريعة المفضية للمداعبة وهي تشتري كتابًا.

(1) هو نوع من أنواع الرقص الذي يؤدّى باستخدام الأصوات الناتجة من ضرب الحذاء النقريّ على الأرض لتصدر نوعا من أنواع الإيقاع.

ولكن في كلّ مرّة، يؤتي الأمر أكله: كنّ يجعلنني أتلمّسُ عضلات أذرعتهنّ لأعاينَ كيف نجحنَ في تنميتها أثناء عطلاتهنّ[1]، ثمّ شيئًا فشيئًا يجعلنني أتلمسُّ أفخاذهنّ، بل ويبالغن في ذلك. ولكنّ ذلك لا ينفي امتلاكي لحرفاء جادّينَ، وإدارتي المكتبةَ باقتدار. والمدهش هو أنّ هؤلاء البنيّات كنّ مستثارات، في أيّ ساعة من النّهار، كإناث الماعز، ورطبات إلى حدّ تقاطر مائهنّ على الأرض. وبالتأكيد، فإنّهُ ليس من السهل على المرء أن يكون أستاذًا في إحدى المدارس. وعندما استأنفت الدروسُ، شعرتُ بالهدوءِ قليلاً، لأنّهن ما عدن يأتين إلاّ بعد الظهيرة. أمّا أسوأ ما في الأمر، فهو أنّ الصبيان أيضا كانوا يحبوّنني، والمقصود أنّ هؤلاء اليافعين الذي لا يمكنُ تمييزهم عن الإناث، باستثناء عدد قليل منهم ببنيتهم الجسدّية الرّجاليّة، كانوا يجدون متعةً، تماما كالبنات، في التحرّشِ بي. ولقد دفعهم هوسهم بي إلى تحويل المكتبة مرقصًا ولستُ أتذكرُ أنّي رأيتُ خمسة منهم معًا دون أن يشرعوا في دندنة أغنية شعبيّة قبل أن يرقصوا على أنغامها. وهو أمرٌ كثيرًا ما جعلني في حالٍ أفضل، لأنّ تلك الأغاني تذكّرني، على نحوٍ مّا، بموطني.

لم أشعر قطّ بالقلق حيالَ تكويني الجسديّ. أعتقدُ أنّهُ من المستحيلِ أن يشكّ أحدهم في أمري. لكنّ «ديكستر» أخافني في مرّة من المرّات الأخيرة التي ذهبنا فيها إلى السبّاحة. كنت بصدد التصرّفِ كأحمق، عريانًا، مع إحدى الفتيات قاذفًا إيّاها في الهواء لأتركها بعد

(1) المقصود هنا آثار عمليّة «التسمّر»، وهي العملية التي يغمّق فيها جلد الإنسان أو يسمرّ بتاثير أشعة الشمس.

ذلك تتدحرجُ فوق ذراعيّ وكأنّها طفل صغيرٌ. وكان هو ورائي، يراقبنا مستلقيا على بطنِهِ. ويا لهُ من منظرٍ بشعٍ أن ترى ذلك الضئيل وندوب ظهره الغائرة المنجرّة عن إصابته بالتهاب الجنبة مرّتين[1]. نظر إليّ من الأسفل ثمّ قال:

- «أندرسون»، بنيتك الجسديّة فريدة، لديكَ كتفان مائلان مثل ملاكمٍ أسود.

أسقطتُ الفتاة وتنبّهت كلُّ حواسيّ بحذرٍ، ثمّ رحتُ أرقص حولهُ منشدًا كلماتٍ من ألحاني. وبينما ضحك الجميعُ، بقيت منزعجًا. أمّا «ديكستر» فلم يضحك بل واصل التطلّع إليّ.

في المساء، تأمّلتُ نفسي في المرآة التي تعلو حوض الغسيل، وانفجرت ضاحكا أنا أيضا، فبفضل الشعر الأشقر، وتلك البشرة البيضاء الوردّية، كنتُ بمأمنٍ. لقد خدعتهم. أمّا «ديكستر»، فإنّ غيرتهُ هي ما جعلهُ يتكلّم بتلك الطريقة. زد على ذلك أنّ كتفيّ مائلان حقًّا. فما الخطأ في ذلك؟ نادرًا ما نمتُ بعمق مثلما نمت في تلك الليلة. بعد يومين، نظّموا حفلة نهاية الأسبوع في منزل «ديكستر». وكان لباسُ السهرة إجباريّا. استأجرتُ بذلة رسميّة. تكفلّ البائع بتجهيزها سريعًا، إذ أنّ الشخص الذي لبسها قبلي لا يختلف عنّي كثيرًا في الحجم ولا شكّ، ولم أجد ضيرا في ذلك على الإطلاق.

في تلك الليلة، فكّرتُ في الصبّي مرّة أخرى.

---

(1) Pleurésie أو التهاب الجنبة أو ذات الجنبة: مرضٌ يصيبُ البطانة المحيطة بالرئتين.

(5)

عندما دخلتُ إلى منزل «ديكستر»، فهمتُ سرّ مطالبته إيّاي بارتداء بذلة السهرة: لقد غرقت عصابتنا وسط مجموعة كبيرة من الشخصيّات المهمّة، تعرّفتُ على البعض منها في الحال: الدكتور والقسّ وآخرون من الطّبقة نفسها. أوّل الأمر تقدّمّ نحوي خادمٌ أسود ليأخذ قبّعتي، ثمّ اكتشفتُ لاحقًا أنّ هنالك أيضا خادمين آخرين أسودين. أمسكني «ديكستر» من ذراعي وقدّمني إلى والديه. لقد أدركتُ أنّ المناسبة هي عيد ميلاده. كانت أمّه تشبهه، امرأة قصيرة، نحيلة وسمراء، لها عينان غائمتان، أمّا الأبُ، فهو من ذلك النوع من الرّجال الذي يثيرُ فيك الرّغبة في خنقه ببطء تحت وسادة، بسبب هيئتِهِ التي تكشفُ تعاليهُ. «بي. جي»، «جودي»، و«جيكي»، والأخريات، بَدَوْنَ متحفّظات جدّا، في فساتين السهرة. لم أستطع منع نفسي من التفكير في أعضائهنّ التناسليّة عندما رأيتهنّ يتظاهرن باللباقة كي يشربن «كوكتيلاً» أو يتركن أنفسهنّ لدعوات الرقص التي تأتيهنّ من رجالٍ جادّين يرتدون نظارات. كنّا من حين لآخر، نتبادلُ الغمزات كي نرفع من معنويّاتنا، فقد بدتْ لنا السهرة بائسة للغاية.

والحقّ أنّ الشراب كان متوفّرًا. «ديكستر»، للإنصافِ، يعرفُ كيف يحتفي بأصدقائه. قدّمتُ نفسي لفتاة أو فتاتين كي نرقص «الرومبا»[1] وشربتُ طالما لم يكن هنالك شيء آخر أقوم به. عندما رقصتُ على أنغام «البلوز» مع «جودي»، عاد إليّ تماسكي، فهي واحدة من الفتيات اللائي نادرًا ما ضاجعتهنّ. عمومًا، كثيرًا ما بدت كأنّها تتفاداني ولم أحرص على مطاردتها أكثر من غيرها، ولكن في تلك الليلة، ما كنتُ لأصدّق أنّي سأخرجُ حيًّا من بين فخذيها، يا للسماء، يا لاشتعالها! لقد أرادت أن أصعد معها إلى غرفة «ديكستر» لكنني لم أكن واثقًا من أننا لن نتعرّض إلى الإزعاج هناك، وبدلا من ذلك، دعوتها إلى كأس. عندئذٍ ارتّج قلبي وبصري يقعُ على مجموعة من أربعة أفرادٍ دخلوا لتوّهم.

كانت المجموعة مكوّنة من ثلاث نسوة -شابّتينِ وواحدة في الأربعين من عمرها تقريبًا- ورجلٍ، ولكن من يهتمّ لشأن الرّجل والمرأة. لقد أدركتُ على الفور أنّي عثرتُ عمّا كنتُ أبحثُ عنه. عندما أحصلُ على تينك الشابتين سيتقلّبُ الصبيُّ في قبره فرحًا. ضغطتُ على ذراع «جودي»، ولا شكّ أنّها حسبتني أرغبُ فيها ما جعلها تقتربُ منّي. كنتُ مستعدًا في المقابلِ لأنّ أضعهنّ كلهنّ في سريري، فقط لكي أتمكنّ من رؤية تينك الفتاتين. وبعد أن أفلتُّ ذراع «جودي» وداعبتُ مؤخّرتها عرضًا وأنا أنزلُ ذراعي، سألتها:

- من هاتان الدّميتان يا «جودي»؟

---

(1) رقصة كوبيّة مشهورة.

- ها، هل أنت مهتمّ لأمرهما يا تاجر الفهارس العجوز؟

- قولي لي؟ من أين حصل «ديكستر» على هاتين الجميلتين؟

- هما من الطبقة الراقية، وليستَا من فتيات «البوبي سوكرز»، فتيات الضواحي أولئك، وأنتَ تعرف هذا بالفعل يا «أندرسن»، لذا انسَ فكرة دعوتهنّ إلى السّباحة.

- يا للخسارة الفادحة! أعتقدُ أنّي لو اضطرّتني الظّروفُ، سأقبلُ بالثالثة[1] فقط لأحصل على الأخريين.

- لا تتحمّس كثيرًا يا عزيزي! فهنّ لسن من هنا.

- من أين قدمن؟

- من «بريكسفيل». إنّها تبعدُ ألف ميل عن «بوكتون»، زد على ذلك أنّ الجماعة هم الأصدقاء القدامى للأب «ديكستر».

- الاثنتان؟

- ما هذا الهراء! تبدو غبيًّا هذه الليلة يا عزيزي «جو لويس»[2]. أتحدّثُ عن الشقيقتين، والأمّ والأب. حسنًا، الشقيقتان هما «لو آسكيث» و«جين آسكيث». تلك الشقراء هي الكبرى، إنّها «جين». أمّا «لو» فتصغرها بخمس سنوات.

- إذن هي في السّادسة عشرة من عمرها؟

---

(1) يقصدُ الأم، السيدة «آسكيث».

(2) جوزيف لويس بارو (1914-1984): ملاكم أمريكي شهير كان بطلا للعالم في العام 1937.

- خمسة عشر. «لي أندرسن»، هل ستتركُ العصابة وتركض خلف عاهرات السيّد «آسكيث»؟

- أنت حمقاء يا «جودي». انظري إلى هاتين الفتاتين، ألا تثيرانِ فيك أيّ رغبة؟

- أنا أفضّلُ الرجال. عذرًا، ولكن أشعرُ أني طبيعيّة هذه الليلة. هيّا راقصني يا «لي»؟

- هل تقدّمينني إليهما؟

- اطلب هذا من «ديكستر».

- حسنًا.

راقصتها على إيقاعِ القطعِ العشرة الأخيرة في الأسطوانة التي شارفت على النهاية ثمّ تركتها هناكَ، وذهبتُ إلى «ديكستر» الذي كان يثرثرُ مع امرأة ما، في آخر القاعة.

- أوه، «ديكستر»؟

- نعم؟

ما إن استدار حتّى بدا عليه المرحُ وهو يتطلّع إليّ، ولكنّي لم أهتمّ.

- هاتان الفتاتان... بنتا السيّد «آسكيث»، على ما أظنّ؟ هل تقدّمني إليهما؟

- بالتأكيد يا عزيزي. تعال معي.

ما رأيتهُ عندما اقتربتُ منهما تجاوزَ بكثير ما رأيتهُ عند «البار».

لقد كانتا مثيرتين. تجاذبنا أطراف حديثٍ عابرٍ ثمّ دعوتُ السمراء، «لو»، إلى الرقصِ على إيقاع أغنية هادئة اللّحن حالما اقترحها مُشغّل الأسطوانات. اللعنة! لقد شكرتُ السماء والرّجل الذي خاط هذه البذلة على مقاسي. كنتُ أمسكها قريبًا مني، أكثرَ قليلا من المعتاد، ولكنّي لم أجرؤ على أن ألتصق بها، مثلما تعوّدنا أن نفعلَ داخل العصابة، كلّما عنّ لنا ذلك. كانت تستخدمُ عطرًا غريبًا ولكن من المؤكّد أنّهُ غالٍ وربّما كان عطرًا فرنسيًّا. أمّا صفاتها، فشعرٌ بنيّ، جمعتهُ كلّهُ على جانبٍ واحد من رأسها، وعينا قطّ بريّ صفراوان، داخل وجهٍ مثلّثٍ وشاحبٍ، وأمّا جسدها، فأفضّلُ ألاّ أخوض في الأمر.

كان فستانها مثبتًا لوحده، لا أعرفُ كيف، إذ لم ألحظ شيئًا يثبتهُ، سواء عند الكتفين أو عند الرقبة، لا شيء، باستثناء نهديها، وعليّ أن أقولُ إنّهُ بإمكانِ هذين النهدين الصلبين والحادّين أن يحملاَ دزّينتين من الفساتين ذات الوزنِ نفسه. ملتُ بها قليلاً إلى اليمين، ومن فتحة بذلتي، أحسستُ بحلمتها، فوق قميصي الحريريّ، تضغطُ على صدري. مع الأخريات، كان بالإمكان رؤية حوافّ سراويلهنّ الداخليّة تبرزُ فوق أفخاذهنّ من تحت فساتينهنّ، أمّا هي فمن المؤكدّ أنّها جهّزت نفسها بطريقة أخرى، حتّى إنّ تقاطيع جسدها، من إبطيها إلى كاحليها، كانت ناعمة مثل الحليب المتدفّق. ومع ذلك، حاولتُ أن أحادثها. وذاك ما فعلتهُ ما إن تمكنتُ من استرجاع أنفاسي.

- كيف لم أرك هنا من قبل؟

- لقد رأيتني. والدليلُ أمامك.

تراجعت إلى الخلفِ قليلاً كي تنظر إليّ. كنتُ أطول منها بكثير.

- أردتُ أن أقول، هنا في المدينة...

- ستراني إذا ذهبت إلى «بريكسفيل»...

- إذن أعتقدُ أنّي سأستأجرُ منزلاً في «بريكسفيل».

كنتُ قد ترددّتُ قبل أن أوجّه لها تلك الكلمات. لم أرد أن أتسرّع ولكن مع هؤلاء الفتيات، لا أحد بإمكانه أن يعرف النتائج. ومع ذلك، على المرء أن يخاطر. إلاّ أن ما قلتهُ لم يبدُ أنه أثار اهتمامها، فكلّ ما فعلته أن ابتسمت قليلاً بينما ظلّت عيناها باردتين، وهو ما دفعني إلى الاستطراد:

- ليس من الضروريّ أن نلتقي حتّى وأنت ترتدين مثل هذا الفستان.

- أعتقدُ أنّ هنالك الكثيرَ من الهواة هنا...

بالتأكيد، كنتُ أندفعُ مثل همجّي. فنحنُ لا نلبسُ بهذه الطريقة إذا كان البردُ يسكنُ أعيننا.

- أوه!. لا يوجدُ الكثيرُ من الأشخاص الذي يثيرون الاهتمام في «بريكسفيل».

- لا عليك. إذن، هل لدّي فرصة؟

- لا أعرفُ ما إذا كنت مثيرًا للاهتمام.

«خذ هذه الصفعة!»، حدّثتُ نفسي، فبالنهاية، أنا من ورّطتُ نفسي. ومع ذلك، لم أستسلم سريعًا.

- ما الذي يمكنُ أن يثير اهتمامك فيّ؟

- تبدو جيّدًا. ولكن قد يكونَ هذا خادعًا فأنا لا أعرفك.

- أنا صديقٌ لـ«ديكستر» و«ديك بايج» والآخرين.

- أعرفُ «ديك». وأرى «ديكستر» شخصا ظريفا...

- لديه الكثير من المال ليكون ظريفًا حقّا.

- إذن، أعتقدُ أنّك لن تحبّ عائلتي على الإطلاق. فكما تعلم، نحنُ أيضا لدينا الكثير من المال...

- يا لها من رائحة جميلة، قلتُ وأنا أقرّبُ وجهي قليلاً من شعرها.

ابتسمت مجدّدًا، ثمّ قالت:

- هل أعجبك عطري؟

- أحبّ رائحتهُ.

- هذا غريب! كدتُ أقسمُ أنّك تحبُّ رائحة الخيول، والشحوم التي تستخدمُ في تنظيف الأسلحة وروائح المراهم.

- «لا تحشريني داخل العلبة»[1]...، استأنفتُ حديثي. ليس ذنبي أنّ بنيتي الجسدّية هكذا، ووجهي لا يحملُ ملامح ملاك[2].

---

(1) أي لا داعي لتقييمي بهذه الطريقة.

(2) في النص الأصلي استخدم المؤلف مفردة «Chérubin» أو كروبيم وتعني الملاك .

- أنا أكرهُ الرجالَ الذين يحملون وجوه الملائكة. ولكنّي أكرهُ أكثر الرجال الذين يحبّون الخيول.

- لم يسبق لي يومًا أن اقتربتُ، من قريب أو من بعيد، من هذه الطيّور[1]. متى أراك ثانيةً؟

- أوه! أنا لم أغادر بعد. لديكَ السهرةُ بأكملها أمامك.

- هذا لا يكفي.

- حسنًا، هذا يعودُ إليك.

ثمّ تركتني في مكاني، فقد انتهت القطعة الموسيقية لتوّها. شاهدتها وهي تنزلقُ بين الأزواج قبل أن تلتفت نحوي وتمنحني ضحكة، ولكنّها لم تكن ضحكة مشجّعة. لقد كانت حنايا جسدها قادرة على إيقاظ عضو كونغرس من نومه.

عدتُ إلى المشرب فوجدتُ «ديك» و«جيكي» هناك. كانا بصدد احتساء المارتيني، وقد بدوا كأنهما يشعرانِ بملل قاتل.

- أوه «ديك»، قلت. أنت تضحك كثيرًا وهذا ما يشوّهُ وجهك[2].

- توقف أيها الرّجل ذو الشعر الطويل، قالت «جيكي». ما الذي جئت تفعلُه هنا؟ هل أتيت لمضاجعة زنجيّة أم لمطاردة الدجاجة الفاخرة[3]؟

---

(1) وردت في سياق سخرية

(2) وردت في سياق السخرية للإشارة إلى عبوس «ديك» الذي يشوه وجهه بالفعل.

(3) عرف عن بوريس فيون مزجهُ بين الكلمات الفرنسية والانجليزية وابتداع لغته الخاصة.

- كرجلٍ يملكُ شعرًا طويلاً -أجبتُ- أشعرُ بأنيّ بدأتُ في التأرجح[1] قليلًا. دعونا نخرجْ من هنا، مع بعض الأشخاص اللطفاء، وسأريكم ما يمكنني فعله.

- أشخاصٌ لطفاء يملكون عيون قطط ويلبسون فساتين بلا حاملات كتف، أليس كذلك؟

قلتُ وأنا اقتربُ منها قبل أن أمسكها من معصميها:

- «جيكي» يا جميلتي، هل ستلومينني لأنّي أحبّ الفتيات الجميلات؟

اعتصرتها قليلاً بين ذراعيّ وأنا أنظرُ إليها. فراحت تضحكُ ملء شدقيها، ثمّ قالت:

- أنت تزعجُ نفسك يا «لي»، لقد اكتفيتَ من العصابة، أليس كذلك؟ ولكنّني كما تعلم، لستُ أقلّ منهنّ شأنًا، فرغم كلّ شيء، أبي يجني عشرين ألف دولارا سنويّا.

- خلاصة الأمر، هل أنتم بصدد الاستمتاعِ هنا؟ أجد الجوّ مِلاًّ. فَلْنحملْ عددا من القوارير وَلْننتقلْ إلى مكان آخر. إنّنا نختنق بين هذه الأشياء الزرقاء الداكنة اللّعينة[2].

والمعنى المرادُ به هذه الجملة «هل جئت لمضاجعة صديقة قديمة أم لمطاردة فتاة ثريّة».

(1) تلاعب بالألفاظ من بوريس فيون ذلك أنّه استخدم في النص الأصلي مفردة «swinger»، المشتقة من اللفظ الإنجليزي «swing» والتي تفيدُ التأرجحَ أو التمايل على أنغام إيقاع «السوينغ». وفي هذا السياق، وردت العبارة في المعنيين، إذ تفيد التأرجح نتيجة تأثير الكحول والرقص على إيقاع «السوينغ».

(2) يقصدُ بها بذلات السهرة.

- هل تعتقد أنّ «ديكستر» سيكونُ سعيدًا؟

- أعتقدُ أنّ «ديكستر» منشغلٌ بأشياء أخرى عدا الاهتمام بنا.

- وفتياتك الجميلات؟ هل تعتقدُ أنّهنّ سيأتين معنا بهذه السهولة؟

- «ديك» يعرفهنّ...، أكّدتُ وأنا ألقي عليه نظرة جانبيّة خبيثة.

ضربَ «ديك»، الذي بدا أقلّ غباء من العادة، على فخذيه:

- «أندرسون»، أنت رجل قويٌّ حقّا. أنت لا تستسلمُ البتّةَ.

- كنتُ أعتقدُ أنّي رجلٌ له شعر طويل.

- حتماً هو شعرٌ مستعار.

- أبحث عن تينك المخلوقتين، قلتُ، واجلبهما إلى هنا. أو بالأحرى، حاول أن تقنعهما بالصعود إلى سيّارتي، أو سيّارتك إن كنت تفضل ذلك.

- ولكن بأيّ ذريعة؟

- أوه يا «ديك»، قلتُ مطمئنا، أنت تملكُ ولا شكّ الكثير من ذكريات الطفولة التي يمكنك استحضارها مع هاتين الشابتين.

غادرَ محبطًا ولكن دون أن يفقد مرحهُ. أمّا «جيكي» فظلّت تستمعُ إلى حوارنا ساخرة ثمّ اقتربت منّي.

- أنتِ - قلتُ- اعثري على «جودي» و«بيل»، واجلبي سبع قناني من الشراب أو حتّى ثمانٍ.

- إلى أين سنذهب؟

- بل إلى أين يمكننا أن نذهب؟

- أبواي ليسا في المنزل. لا يوجدُ سوى أخي الصغير وهو نائم. تعالوا إلى منزلي.

- أنت رائعة حقّا يا «جيكي». فلتقسمي بحياتك.

خفضت صوتها وهي تقول:

- هل ستفعلُ ذلك معي؟

- ماذا؟

- هل ستفعل يا «لي»؟

- أوه...بالتأكيد.

كنتُ قد اكتفيتُ من «جيكي»، ومع ذلك شعرتُ بأنّي بإمكاني مضاجعتها في الحال. كان من المثير أن أراها في فستان السهرة بشعرها المتموّج الناعمِ المنسدلِ على خدّها الأيسر، وعينيها المائلتين قليلاً وفمها المثير.

كانت تتنفّسُ بسرعة وقد تورّد خدّاها.

- إنّها سخافة منّي يا «لي»، أنا أعرفُ أنّنا نفعلُ ذلك طوال الوقت، ولكنّي أحبُّ ذلك!

قلتُ مداعبًا كتفها:

- لا عليك يا «جيكي». سنفعلُ ذلك أكثر من مرّة قبل أن نموت...

اعتصرتْ معصمي في قوّة ثمّ فرّت قبل أن أمنعها من المغادرة. لكم وددتُ أن أخبرها بحقيقتي، في تلك اللحظة، كي أرى أثر ذلك على ملامحها... ولكنّ «جيكي» ليست فريسةً على مقاسي، فقد كنتُ أشعرُ بأنّي قويّ مثل «جون هنري»[1] وبأنّ قلبي بمأمنٍ من الانكسار.

عدتُ إلى المشرب وطلبتُ كأس مارتيني مزدوج من الرّجل الذي يقفُ وراء المنضدة. شربتُ كأسي دفعة واحدة ثمّ حاولتُ القيام بشيء مّا كي أساعد «ديك».

كانت كبرى بنتيْ السيّد «آكسيث» قد ظهرت في المكان وراحت تثرثر مع «ديكستر». والحقّ أنّي أحببتُ مظهره، حتّى وإن لم يبدُ كالمعتاد، بخصلة شعره السوداء المنسدلة فوق جبينهِ. لقد ناسبته بذلة السهرة تمامًا، حتى إنْ بدا جسدهُ قويًّا إلى حدّ مّا داخلها، أمّا بشرتهُ الداكنة المتناقضة مع لون القميص الأبيض، فبدت كأنّها ملصق إعلانّي لنزل «سبلنديد» في ميامي.

ذهبتُ إليهما مباشرةً.

- «ديكس»، قلتُ، هل ستقتلني لو دعوتُ الآنسة «آسكيث» إلى الرقص؟

- أنت أقوى منّي كثيرًا يا «لي»، أجاب «ديكستر». لن أقدر على منازلتك.

---

(1) جون هنري لويس (1914-1974): ملاكم أمريكي مشهور.

في الواقع، كنتُ أعرف أنّ الأمر لا يعنيه، ولكن كان من الصعبِ تخمين مغزى كلمات هذا الصبيّ.

كنتُ قد خاصرتُ «جين آسكيث» بالفعل. وحين فعلتُ، شعرتُ بأنّي أفضّل شقيقتها «لو» وكان صعبا عليّ الإقرارُ بأنّ هنالك خمس سنوات تفصلُ بينهما، فطول قامة «جين» يناهزُ طول قامتي، فهي أطول بأربع بوصات تقريبًا من «لو».

كانت ترتدي فستان سهرة من قطعتين، مصنوعا من قماشٍ أسود شفّافٍ، يتكوّنُ جزؤه السفليّ من سبع طبقات أو ثمانٍ، تعلوهُ حمّالة صدر معقَّد تصميمها للغاية ولكنّها لا تغطّي الكثير من نصفها العلويّ فاسحة المجال لمعاينة بشرة ذهبيّة مع القليل من النمشِ فوق كتفيها وصدغيها. أمّا شعرها فقد صففتهُ على شكل تسريحة قصيرة ومجعّدة، ممّا جعل رأسها يبدو مدوّرًا، وكان وجهها أيضًا أكثر امتلاءً من «لو».

- هل تشعرين بالمرحِ هنا؟، سألتها.

- هي سهرة كغيرها، ولا أعتقد أنّها ستكونُ أكثر سوءًا.

- في هذه اللحظة، أنا أراها أفضل من أيّة سهرة أخرى.

كانت تتقنُ الرقص، وهو ما سهّل عليّ الأمر. زد على ذلك أنّي لم أضطرّ إلى إزعاج نفسي بالاحتفاظ بها قريبًا منّي مثلما فعلتُ مع أختها، إذ كان في مقدورها أن تحادثني دون أن تنظر إليّ من الأسفل. ضغطت بوجنتها على وجنتي، وعندما خفضتُ بصري، استقرّت

عيناي على أذنها المدوّرة الجميلة، وشعرها القصير الظريف وكتفها الممتلئ وقد عبقت برائحة القويسة[1] والأعشاب البريّة.

قلتُ مستأنفًا الحديث الذي انقطع برفضها التفاعل مع ما صرّحتُ به:

- ما هو العطر الذي تضعينهُ؟

- أنا لا أضعُ العطور مطلقًا.

لم أصرّ على هذا النوع من المحادثات، لذلك قرّرتُ أن أجازفَ.

- ما رأيك في الذهاب إلى مكانٍ آخر يمكن أن نعثر فيه على مرح حقيقي؟

- ماذا تعني؟

كانت تتكلّمُ بلا مبالاة دون أن ترفع رأسها حتّى بدا لي ما تقولهُ وكأنّه يأتي من مكانٍ آخر ورائي.

- أعني مكانا يمكننا أن نشربَ فيه ما نريد وندخّنَ ما نريد وبه ما يكفي من المساحة كي نرقص كما نريد.

- سيكونُ أفضل من هنا. إنّ الطريقة التي نرقصُ بها هنا تذكّرني بعرض للباليه[2].

---

(1) القويسة أو القصعين أو المريميّة: جنس نباتي له خصائص طبيّة.

(2) ثمة اختلاف بين النسختين الفرنسية والانجليزية، ففي الأولى يستخدمُ المؤلف عبارة «رقصة قبليّة» أما في الثانية عبارة «رقصة باليه».

لم نكن قد تحرّكنا من مكاننا طيلة خمس دقائق، مكتفين بتحريك أقدامنا إلى الأمام والخلف على إيقاع الموسيقى دون أن نتمكنّ من تغيير الوضع. ومن ثمّ توقفتُ عن احتضانها، وقدتها إلى باب الخروج دون أن أفلت خصرها.

- تعالي إذن، قلتُ. سنذهبُ إلى منزل بعض الأصدقاء.

- أوه! أرغبُ في ذلك حقّا، قالت.

استدرتُ نحوها أثناء إجابتها لي فاستقبلتُ أنفاسها مباشرة في وجهي. والله يعلم أني لن أكذب لو قلتُ إنّها شربت نصف زجاجة «جين» على الأقلّ.

- من هم أصدقاؤك هؤلاء؟

- أوه، إنّهم لطفاء، قلت لها مطمئنًا.

عبرنا قاعة الاستقبال الفارغة ولم أشغل نفسي بالبحث عن عباءتها. فالهواءُ في الخارج دافئٌ ومعطّرٌ برائحة نبات الياسمين الفائحة في الرواق.

- ولكن- قالت «جين» وهي تتوقف عند الباب- أنا لا أعرفك على الإطلاق.

- بلى... - قلتُ وأنا أجرّها- أنا صديقك القديم «لي أندرسون».

انفجرت ضحكا وتركتني أسحبها إلى الخارج.

- أوه بالتأكيد..! «لي أندرسون».. تعال يا «لي»..إنهم ينتظروننا!

وجدتُ صعوبة في اللحاق بها. لقد التهمت الدرجات الخمس في ثانيتين قبل أن ألحق بها بعد عشرة أمتار.

-هوه! لا تسرعي هكذا، قلتُ ثمّ طوّقتها بذراعيّ الاثنتين.

- السيّارة هنا.

كانت «جودي» و«بيل» بانتظاري في سيّارة «الناش».

- لقد حصلنا على بعض الشراب، همست «جودي». إنّ «ديك» في المقدّمة مع الآخرين.

سألتُ هامسًا:

- «لو آسكيث» معهم أيضا؟

- أجل يا دون خوان، إنها معهم. هيّا انطلق بالسيّارة.

مدّت «جين آسكيث»، وهي ترخي رأسها على مسند كرسي السيارة الأمامي، يدًا رخوة نحو «بيل».

- مرحبًا! كيف حالك؟ هل ستمطر؟

- بالتأكيد لا، قال «بيل». مؤشّر مقياس الضغط نزل إلى ثمانية عشر درجة، ولكن هذا يخصّ يوم غد لا الليلة.

- أوه !، قالت «جين». لا أعتقدُ أنّ سيارتك ستذهبُ بعيدًا.

قلتُ محتجًّا:

- لا تقلّلي من شأن سيّارتي «الدوسنبرغ»[1]. ألا تشعرين بالبرد؟

(1) طراز من السيارات الفاخرة الأمريكية. واستخدم المؤلّف هذه المفردة في سياق سخرية.

انحنيتُ بحثًا عن بطانية خياليّة ثم رفعتُ تنّورتها إلى ما فوق ركبتيها عرضًا إثر اشتباكها بأزرار كمّي. يا للعظمة! يا لساقيها!

- الحرارةُ لا تطاق، قالت «جين» بصوتٍ متغيّر.

ضغطتُ دوّاسة الوقود وتبعتُ «ديك» وقد انطلق أمامي. كان هنالك صفّ من السيّارات من كلّ الأنواع أمام منزل «ديكستر» فوددتُ لو أخذتُ واحدة منها مكان سيّارتي «الناش» القديمة. ولكنّي حدّثتُ نفسي بأنّي سأتدبّرُ أمري دون سيّارة جديدة.

لم يكن منزل «جيكي» بعيدًا، منزل ينتمي إلى الطراز الاستعماريّ[1] به حديقة محاطةٌ بسياج من الشجيرات العالية جدّا، تتميّزُ عن بقيّة حدائق الحيّ.

رأيتُ ضوء سيّارة «ديك» يتوقف عن الوميض ثمّ ينطفئ قبل أن يشتعل ضوءُ ركن السيّارة. توقفتُ بدوري وسمعتُ صوت أبواب «الرود ستار» تصفق، بعد أن خرج منها أربعة اشخاص هم: «ديك»، «جيكي»، «لو» وشخص رابع، تعرّفتُ عليه من طريقته في صعود مدرج المنزل. إنّه «نيكولاس» الصّغير. كان يمسكُ زجاجتين وكذلك «ديك» بل إنّ «جودي» و«بيل» أيضا كانا يحملان قوارير.

لم تُبد «جين آسكيث» رغبةً في النزول من «الناش» ولذلك درتُ حول السيّارة وفتحتُ الباب وتركت إحدى ذراعيّ تنزلق تحت ركبتيها فيما التفت الثانية حول رقبتها. وأثناء عمليّة إخراجها من

(1) أي ينتمي إلى الفترة الاستعمارية التي عاشتها الولايات المتحدة الامريكية.

السيّارة، تلقّت ضربة على أنفها فلم تلبث «جودي» الواقفة ورائي أن علّقت على الأمر قائلة:

- «لي»، إنّ صاحبتك الجميلة ثملة. قل لي، هل أعطيتها لكمة؟

أجبتها متذمّرًا:

- لا أعرفُ ما إذا كان هذا بسببي أو بسبب «الجين» الذي شربتهُ، ولكنّها على أيّة حال، ليست بصدد أخذ قيلولة رائقة.

- تبدو الفرصة مواتية للاستفادة من هذا الوضع يا عزيزي. هيا افعلها.

- أنتِ حقّا تزعجينني. سيكونُ الأمر سهلاً جدّا مع امرأة ثملة...

- هاي...أنتما!

تناهى إلينا صوت «جين» اللطيف. لقد استيقظت.

- أنزلني!

أدركتُ أنّها ستفرغُ ما في بطنها ولذلك سارعتُ إلى حديقة منزل «جيكي». أغلقت «جودي» الباب وراءنا فأمسكتُ رأس «جين» وتركتها تتقيّأ. لقد كانَ قيئًا نظيفًا. لا شيء غير «الجين» الصافي. ولقد وجدتُ صعوبة في إمساكها في تلك الوضعيّة وكأنّني أمسكُ حصانًا. أمّا هي فلم تتوقف عن إفراغ ما في بطنها. وبعد أن ثبتّها بيد واحدة، همستُ لـ «جودي»:

- انزعي كمّ سترتي.

خلعت كمّ بذلتي عن ذراعي ثمّ تحوّلتُ جانبًا كي أمسك بكبرى بنتيْ السيّد «آسكيث».

- إنّها بخير، قالت «جودي» حالما أنهت «جين» تقيؤها. سأحتفظ بالسترة. هيّا لك كلّ الوقت.

في الأثناء، كان «بيل» قد غادر حاملاً الزجاجات.

سألتُ «جودي»:

- أين يمكنني أن أعثر على الماء هنا؟

- في الدّاخلِ. تعالَ، سندخلُ عبر الفناء الخلفيّ.

تبعتها عبر الحديقة جارًّا «جين» التي كانت تتعثّر، مع كلّ خطوة، فوق حصى الممشى. يا الله، كم تبدو ثقيلة هذه الفتاة! كنتُ منشغلاً بمساعدتها فسبقتني «جودي» إلى السلّم وقادتني إلى الطابق العلويّ. بينما شرع الآخرون في إحداث جلبة داخل غرفة المعيشة، ولحسن الحظّ كان بابها مغلقًا وهو ما خفّف من حدّة ضوضائهم. كنت أصعد متخبّطا في الظلامِ مستدلاً بالنورِ الخافتِ القادم من حيثُ لا أدري، والمنعكسِ على فستان «جودي». وعندما بلغنا الطابق، نجحت في العثور على المفتاح الكهربائي ودخلتُ غرفة الحمّام. كانت هناك سجّادة مطاطية كبيرة أمام المغطس. قالت «جودي»:

- ضعها فوقها.

- كفي عن المزاح، قلتُ. اخلعي تنورتها.

فكّت سحّاب التنورة وخلعت القماش الرقيق في لمح البصر.

ثمّ قامت بإنزالِ جواربها إلى كاحليها. وبصراحة لم أكن قد عرفتُ معنى امتلاكِ امرأة لقوام رائع قبل أن أرى «جين آسكيث» عارية، فوق سجادة الحمام، بل إنّه حلمٌ أن أراها في عريها ذاك. كانت عيناها مغمضتين ولعاب يسيلُ من فمها، فقمتُ بمسح فمها بمنشفة. والحق أنّي لم أفعل ذلك لأجلها بل لأجلي. في الأثناء، هرعت «جودي» نحو خزانة الأدوية.

- «لي»، لقد عثرتُ على ما يلزمها. عليك أن تجعلها تشرب هذا.

- لا يمكنها أن تشرب الآن. إنّها نائمة. زيادة على أنّها لم تحتفظ بأيّ شيء داخل أمعائها.

- حسنًا، هيّا افعلها يا «لي». لا تهتمّ لأمري. فإذا استيقظت قد لا ترغبُ في أن تفعلها معك.

- على رسلك يا «جودي».

- هل يزعجك أنّي ما زلت أرتدي فستاني؟

توجّهتْ نحو الباب وأدارت المفتاح في القفل ثمّ خلعت فستانها وحمّالة صدرها ولم تحتفظ سوى بجواربها.

- الأمرُ يعود إليك الآن.

جلستْ على حافة المغطس مباعدة بين ساقيها وتطلعت إليّ. لم أستطع التماسك أكثر وخلعتُ ملابسي على الفور.

- اصعد فوقها يا «لي». أسرع.

- «جودي»، أنت مقزّزة، قلتُ.

- لماذا؟ إنّهُ لأمرٌ ممتعٌ أن أراك ترقدُ فوق هذه الفتاة. هيّا يا «لي»، افعل شيئا...

تهالكتُ فوق الفتاة، لكنّ «جودي» اللعينة، وهي تدفنُ رأسي بين فخذيها، قطعت أنفاسي إلى أن خارت قواي. لقد بقيتُ جالسًا على ركبتيّ محتفظًا بـ«جين» بين ساقيّ. عندئذٍ اقتربت «جودي» منّي قائلة:

- سأساعدك يا «لي». تمدّد فوقها.

بعد أن استجبتُ لاقتراحها، اقتربت «جودي» منّي ثانيةً وقامت بتمرير يدها تحتي وأمسكت بعضوي كي ترشدني إلى المكان الصحيح دون أن تفلت يدها. كان ما تفعلهُ بي يثيرني إلى أقصى حدّ حتّى كدتُ أصرخ. بقيت «جين آكسيث» ثابتة في مكانها وعندما استقرّت عيناي على وجهها، رأيتُ اللّعاب يسيلُ مجدّدا من فمها. في الأثناء، فتحت عينيها نصف فتحةٍ ثمّ أغمضتهما وشعرتُ بأنّ الحركة بدأت تدبُّ فيها قليلاً، خصوصًا وهي تشرعُ في تحريك خصرها تحتي، بينما واصلت «جودي» إرشادي بإحدى يديها فيما راحت بالثانية تداعبُ مؤخّرتي.

نهضت «جودي» إثر ذلك وتمشّت داخل الغرفة وأطفأت نور المصباح. حدّثت نفسي بأنّ الجرأة تعوزها إلى حدّ يمنعها من فعل أيّ شيء والنورُ مضاء. عندما رجعت نحوي، ظننتُ أنّها ستكرّرُ العمليّة نفسها، إلاّ أنها مالت نحوي وداعبتني. كنتُ ما أزالُ في نفس الوضعيّة حينما تمدّدت على بطنها فوق ظهري، ورأسها يواجهُ

مؤخّرتي، ولكن بدلاً من أن أحسَّ هذه المرّة بملمسِ يدها، شعرتُ بلسانها هناك.

(6)

بعد حوالي السّاعة، انتبهتُ إلى أنّ الآخرين سيجدون اختفاءنا محيّرًا، لذا حرّرتُ نفسي من الفتاتين. لم أكن أعرفُ في أيّ بقعةٍ بالضبّط كنّا داخل غرفة الحمام. لقد شعرتُ بدوارٍ خفيف وبألمٍ يمزّقُ ظهري، وبجروحٍ في وركيّ بعد أن خدشتني «جين» هنالك بفظاظة، فرحتُ أزحفُ في اتّجاهِ الحائط وتمكنّتُ من أن أرشدني، وسط الظلمةِ، إلى أن عثرتُ على المفتاح الكهربائيّ فيما تناهى إلى سمعي صوت جلبة خفيفة أحدثتها «جودي». وعندما أشعلتُ النّور، رأيتها تجلسُ على الأرض وهي تفركُ عينيها فيما بقيت «جين آسكيث» مستلقيةً على بطنها على سجادة الحمام، واضعة رأسها فوق ذراعيها، حتّى إنّها بدت لي وكأنّها نائمة. يا الله، يا للخصر الذي تمتلكه هذه الفتاة! ارتديت قميصي وسروالي سريعًا بينما انهمكت «جودي» في تجديد زينتها أمام حوض الاغتسال. ثمّ أخذتُ منشفة وغمستها في الماء قبل أن أرفع رأس «جين آسكيث» لأوقظها، لكنّي تفاجأتُ حين رأيتُها تضحك وعيناها مفتوحتان على اتساعهما، ما أثار استغرابي. حينئذٍ، أمسكتها من جذعها وأجلستها على حافة حوض الاستحمام، قائلاً:

- ما تحتاجينه هو حمّام منعش.

- أنا متعبة. أظنّ أنّي شربتُ قليلاً.

قالت «جودي» ساخرة:

- أنا أيضا أظنّ ذلك.

- أوه !، أنت لم تشربي كثيرًا، قلتُ مطمئنًا. ما تحتاجينه حقّا هو غفوة قصيرة.

عندئذٍ، نهضت وتعلّقت برقبتي ومنحتني قبلة طويلة، لكنّي حرّرتُ نفسي منها بلطفٍ وأجلستها داخل حوض الاستحمام، قائلاً:

- أغمضي عينيك وارفعي رأسك...

أدرتُ صنبوريْ الماء، لتتلقّى الماءَ على وجهها. تمدّد جسدها تحت الماء الدافئ حتّى إنّي رأيتُ كيف أصبحت حلمتاها داكنتين وهما تبرزان ببطء.

- يبدو هذا منعشًا...، قالت «جودي» ساخرة وهي ترفع جواربها.

- عليكما أن تسرعا قليلاً، قلتُ. إذا نزلنا في الحالِ، ربّما لحقنا بهم قبل أن يجهزوا على قوارير الشّراب.

ثمّ أمسكتُ رداء الحمّام، و«جين» تغلقُ صنبوري المياه، ولففتها داخل القماش الاسفنجي، فبدا لي أنّها أحبت ما أفعلهُ بها. إذّاك سألتني:

- أين نحن؟ في منزل «ديكستر»؟

- لا، في منزل أصدقاء آخرين. لقد شعرنا بالملل في منزل آل «ديكستر».

- لقد أحسنت صنعا عندما أخذتني من هناك. يبدو المكانُ ملائمًا أكثر هنا.

وبعد أن جّففت نفسها، قدّمتُ لها فستانها المكوّن من قطعتين، قائلاً:

- ارتدي هذا. جدّدي زينتك وتعالي.

ثمّ توجهتُ نحو الباب وفتحتهُ أمام «جودي» التي أخذت تلتهمُ الدرّج. وبينما كنتُ أستعدّ للحاقِ بها، نادتني «جين» قائلة:

- انتظرني يا «لي»...

أدارت ظهرها نحوي وطلبت منّي أن أغلق حمّالة صدرها. إذّاك، عضضتها برفق من رقبتها، لكنّها أمالت رأسها إلى الوراء قائلة:

- هل ستنامُ معي مجدّدًا؟

- بكلّ سرور، متى تشائين.

- الآن؟

- أختك ستتساءلُ عمّا تفعلينه طيلة هذا الوقت.

- هل «لو» هنا؟

- بالطبع!

-أوه ! هذا رائع. سيكون بإمكاني أن أراقبها إذن.

- لا أظنّ أنّ مراقبتك إيّاها ستكونُ ذات فائدة كبيرة لها.

- كيف وجدت «لو»؟

- لن أمانع لو نمت معها هي أيضا.

ضحكتْ مجدّدًا ثمّ قالت:

- إنّي أراها رائعة. أتمنّى لوكنتُ مثلها. آه، لو رأيتها وهي عارية...

- ماذا لو رتّبت لي الأمر معها؟

- يا إلهي، أنت فاسقٌ حقيقيّ!

- أرجو المعذرة. لم أحظ بفرصة تعلّم قواعد اللياقة.

- لا، أظنّ أنّ سلوكك رائع، قالت وهي تنظرُ إليّ بغنجٍ.

عندئذٍ وضعتُ ذراعي حول خصرها وسحبتها إلى الباب.

- حان وقتُ النزول.

- أحبّ صوتك أيضا.

- هيّا.

- هل تريد أن تتزّوجني؟

- لا تتفوّهي بالحماقات.

شرعتُ في نزول الدرج، فيما واصلت هي حديثها:

- ليست حماقات. يجب أن تتزّوجني حالاً.

بدت لي هادئة تماماً وواثقة ممّا تقول، ما اضطرّني إلى أن أجيبها:

- لا أستطيع ان أتزوّجك.

- لماذا؟

- أظنّ أنّي أفضلّ أختك.

ضحكت مجدّدًا.

- «لي» أنا أعشقك!

- شكرًا.

عندما نزلنا، تناهت إلينا أصواتُ الجلبة الكبيرة التّي أحدثها الأصدقاءُ في غرفة المعيشة. وحين دفعتُ الباب، مفسحًا المجال لـ«جين» كي تدخلُ قبلي، استقبلونا بحفلة من الهمهمات المتذمّرة. وما إن دلفتُ الغرفة حتّى اكتشفتُ أنّهم فتحوا علب الدجاج المجمّد وانهمكوا في الأكل مثل مجموعة من صغار الخنازير، وعاينتُ كيف لطّخ المرقُ قمصانَ «بيل» و«ديك» و«نيكولاس»، بعد أن نزعوا جميعا ستراتهم، فيما انتشرت بقعة كبيرة من «المايونيز» على فستان «لو» من أعلاه إلى أسفله. أمّا «جودي» و«جيكي» فقد انهمكتا في التهام الطعام دون أن تشغلا نفسيهما بما يحدثُ حولهما، لأكتشف حينئذٍ أنَّ خمس قواريرَ كانت فارغة تقريبًا.

في الأثناء، كان الراديو يبثُّ حفلة راقصة بصوتٍ خفيض، بدت لي رتيبة.

ما إن رأت «جين» قطع الدجاج حتّى أطلقت صيحة فرح واستحوذت بكلتا يديها على قطعة كبيرة شرعت في التهامها دون إبطاء، أمّا أنا فاتخذتُ لي مكانًا بينهم وملأتُ صحني.

لقد بدا لي واضحًا أنّ الأمورَ ستجري على نحوٍ رائع.

(7)

في الساعة الثالثة فجرًا، هاتفنا «ديكستر». وفي الأثناء، واصلت «جين» الشرب بتصميمٍ حتّى إنّها سكرت أكثر من المرّةِ السّابقة، ما حفّزني إلى انتهازِ تلكَ الفرصة لأضاجعها ثانيةً، قبل أن أتركها لـ«نيكولاس» كي يتولّى أمرها. ومع ذلك، لم أترك أختها وشأنها، بل حاولتُ إرغامها على الشربِ، قدر ما أستطيع، ولكنّها قاومت ما اضطرّني إلى إخراجِ كلّ ما في جعبتي من حيل. في اتصالهِ، حذّرنا «ديكستر» من أنّ والَديْ الآنستين «آسكيث» أخذا يتساءلان عن الاختفاء المحيّر لابنتيهما، وعندما سألتهُ كيف تمكنّ من العثورِ علينا، أجابتني ضحكتهُ في الهاتف. ومع ذلك، شرحتُ له سبب مغادرتنا منزلهُ، فقال لي:

- لا تزعج نفسك يا «أندرسون». أعرفُ جيّدًا أنّه لا يوجدُ ما يثيرُ الاستمتاع في منزلي هذه الليلة مع كلّ هؤلاء الأشخاص الجادّين.

قلتُ مقترحًا:

- لماذا لا تلتحق بنا يا «ديكس»؟.

- لماذا؟ هل أجهزتم على كلّ المشروبات؟

وكما هو حالهُ دائمًا، بدت لي إجابتهُ لاذعة كما بدت لي لهجته تفتقرُ إلى البراءة. ومع ذلك، أجبتهُ:

- لا، ليس هذا، ولكن قد تجدُ معنا ما يغيّرُ أفكارك.

- لا أستطيع مغادرة المنزل، وإلاّ لكنتُ أتيت. ماذا أقولُ لوالديهما؟

- قل لهما إننا سنقوم بإيصال الصبيّتين إلى باب المنزل.

- لا أعرف إن كانا سيتفهّمانِ الأمر يا «أندرسون». فكما تعلم...

قاطعتهُ قائلاً:

- هما كبيرتان بما يكفي للاعتناء بنفسيهما.

- حسنًا يا «لي» ولكنّهما يعرفانِ أنّ البنتين ليستا بمفرديهما.

- تصرّف يا عزيزي «ديكستر». أنا أعوّلُ عليك.

- حسنًا، سأتدبّر الأمر. إلى اللقاء.

- إلى اللقاء.

ثمّ أغلق الخطّ، وفعلت الشّيء نفسه قبل أن أعود إلى رفاقي، وأكتشف أنّ «جيكي» و«بيل» شرعا في القيام ببعض الحركاتِ التي تجهلها بنات العائلات الكريمة، وشعرتُ بالفضول لمعرفة ردّة فعل «لو»، التي قبلت بالنّهايةِ أن تشرب قليلاً، لكن بدا عليها أنّها صدمت من رؤية ما يحدث أمامها، حتى و«بيل» يشرعُ في خلع فستان «جيكي». انتهزتُ الفرصة لأسألها:

- ماذا أقدّم لك؟

- الويسكي.

- اشربي هذه الكأس بسرعة وتعالي نرقص.

ثمّ أمسكتُ يدها وحاولتُ سحبها إلى غرفة أخرى.

- ماذا سنفعلُ هناك؟

- ألا ترين إنهم يحدثون الكثير من الضوضاء هنا؟

تبعتني إلى الغرفة صامتةً ثمّ جلست إلى جانبي على الأريكة، دون أيّ اعتراضٍ، ولكن حين حاولتُ مداعبتها تلقيت واحدة من تلك الصفعات التي لا يمكنُ لرجلٍ أن ينساها.

اجتاحني غضبٌ رهيبٌ ومع ذلك نجحتُ في الاحتفاظ بابتسامتي، وهي تقولُ لي:

- أبعد يديك عنّي.

- أنت قويّة فعلاً يا عزيزتي.

- لستُ أنا من بدأ.

- ولكنّ ذلك لا يبرّرُ صفعك لي. هل كنتِ تظنّينَ أنّك قدمت إلى اجتماع يوم الأحد بالمدرسة أم إلى حفلة «بينغو»؟

- أنا لا أرغبُ في أن أكونَ جائزة أحدهم الكبرى.

- سواء أحببت ذلك أم لا، أنت فعلا جائزتي الكبرى.

- أظنّ أنّك تطمعُ في ثروة أبي.

- لا، ولكن في شيء آخر.

ثمّ دفعتها على الأريكة وانتزعتُ مقدّم فستانها، غير أنّها قاومت مثل شيطان جميل لاسيّما ونهداها يبرزان من تحت القماش الحريري الشفاف.

- دعني وشأني. يا لك من همجيّ!

- لا، لستُ همجيًا. أنا رجل.

قالت وهي تحاول تحرير نفسها منّي:

- أنت تثير اشمئزازي. ما الذي كنت تفعلهُ طوال الساعة التي قضيتها مع «جين» في الطابق العلويّ؟

- لا شيء على الإطلاق. أنت تعرفين أنّ «جودي» كانت معنا.

- لقد بدأت أفهم أيّ نوعٍ من الأصدقاء أنتم يا «لي أندرسون» وأي نوعٍ من الأشخاص تعاشرون.

- أقسم لك يا «لو» أنّي لم ألمس أختك عدا مساعدتي لها كي تتخلّص من آثار ثمالتها.

- أنت تكذب. ألم تر كيف كانت تنظرُ إليك عندما نزلتما؟

- حسنًا. أكادُ أقسمُ أنّك تشعرين بالغيرة.

تطلّعت إلى مشدوهة.

- ولكن من أنت؟ من تظنّ نفسك؟

- هل تعتقدين أنّي سأرغبُ في أن أفعل هذا معك لو كنتُ لمستُ أختك؟

- حسنًا، إنّها ليست أفضل منّي!

كنتُ ما أزالُ أمسكها فوق الأريكة إلا أنّها توقفت عن المقاومة، وصدرها يرتجُّ بسرعة. انحنيتُ فوقها وقبّلتُ نهديها، طويلاً، الواحد تلو الآخر، مداعبًا حلمتيها بلساني. ثمّ نهضتُ قائلاً:

- لا يا «لو»، إنّها ليست أفضل منك.

بعد ذلك، أفلتّها وأنا أتراجعُ إلى الوراءِ بشدّة خوفاً من ردّة فعلها. عندئذٍ، استدارت إلى الجهة المقابلة وأخذت تبكي.

(8)

بعد تلك الحفلة، عدتُ إلى عملي اليوميّ. كنتُ أعلمُ أنّي نصبتُ مصيدتي، وكلّ ما عليّ فعلهُ هو أن أترك الأمور تأخذ مجراها. في الواقع، ثبت في يقيني أنّي سأراهما مجدّدًا، إذ لا أظنّ أنّه في استطاعة «جين» أن تنساني، هي التي لم تتحوّل عيناها عنّي طيلة السّهرة، أمّا بخصوص «لو»، فإنّي كنتُ أعوّلُ لا على سنّها فحسب وإنّما أيضا على ما قلتهُ لها وما فعلته بها في منزل «جيكي».

في الأسبوع الموالي، تلقيتُ شحنة كبيرة من الكتب الجديدة، كان قدومها يعلنُ عن نهاية الخريف وحلول فصل الشتاء. واصلتُ العمل بدأب حتّى إنّي تمكنتُ من ادّخار بعض الدولارات وحصلتُ منها على مبلغ جيّد، ولئن كان صحيحا أنّي لم أتخلّص من عوزي، فإنّ ما حصّلتهُ من المال كان يكفيني. ومع ذلك اضطررتُ إلى إنفاق البعض منهُ، لشراء ملابسَ جديدة وإصلاح سيّارتي. في الأثناء، حدث أن عوّضتُ أكثر من مرّة عازف غيتار الفرقة المحترمة الوحيدة في المدينة، التي تقدّم وصلاتها في نادي «ستورك». وإن كنتُ أشكُّ في وجودِ علاقة تربط بين نادي «ستورك» ذاكَ ونادٍ آخر في «نيويورك»، يحملُ الاسم نفسه، إلاّ أنّهُ يستهوي الشبان، ذوي النظارات، الذين يبدون سعيدين

وهو يأتون إليه مرفوقين ببنات وكلاء التأمين أو بائعي الجرّارات. لقد مكّنني ذلك العملُ من جني أموال إضافية، كما ساعدني على بيع الكتب إلى أولئك الأشخاص الذين تعرّفتُ إليهم هنالك. في بعض الأحيانِ، كان أفرادُ عصابتنا يأتون أيضاً إلى نادي «ستورك». فقد واصلتُ لقاءهم بانتظام مثلما واصلتُ مضاجعة «جيكي» و«جودي». يقينًا لم أستطع التخلّص من «جيكي»، ومع ذلك، كان لديّ تانكِ الفتاتان، لحسن حظّي، لاسيّما أنّي كنتُ دائمًا في حالة غلمة. وعدا ذلك، رحتُ أمضي وقتي في ممارسة الرّياضة حتّى اكتسبتُ عضلات ملاكم.

وفي إحدى الليالي، بعد حوالي أسبوعٍ من تلك السهرة في منزل «ديكس»، تلقيّتُ رسالة من «توم»، يطلبُ فيها منّي القدوم في أقرب وقت، فاغتنمتُ عطلة يوم السبت وذهبتُ إلى المدينة وأنا أدرك أنّ «توم» ما كان ليراسلني بلا سبب وجيهٍ، ومن ثمّ خمّنتُ أنّ الأمر ملحٌّ فعلاً.

فبمناسبةِ الانتخابات، عمد بعضُ الأشخاص، بأمر من عضو مجلس الشيوخ «بالبو»، إلى تخريب عمليّة التصويت. كانَ «بالبو» هذا أكثر الأوغادِ صيتًا في كامل الولاية. ومنذ أن مُنح السّودُ حقّ التصويت، صّعد من استفزازاته لهم، وفعل ما في وسعهِ -مستعينًا برجالهِ- كي يفسدَ اجتماعاتهم قبل يومين من تاريخ التصويت، حتى بلغ بهم الأمرُ أن ضربوا رجلين حتّى الموت.

ولأنّ أخي معلّمٌ يشتغلُ في مدرسة مخصّصة للسود، احتّج علنًا على ما حدث بل وأرسلَ رسالة إلى السلطاتِ حول الموضوع، ليقوم

رجال «بالبو» في اليومِ التّالي، بالإعتداءِ عليه، وهو ما دفعُه بالنّهاية إلى مراسلتي طالبا منّي القدوم لآخذهُ بالسيّارة إلى أيّ مكان آخر.

عندما وصلتُ، وجدتهُ في انتظاري، جالسا على كرسيّ، وحيدًا داخل إحدى غرف المنزلِ المظلمة. لقد آلمني أن أرى ظهره العريض منحنيا، على ذلك النحوِ، وهو يضعُ رأسه بين يديه، وشعرتُ بدماء الغضب السوداء،تلك الدماء الأصليّة الصافية، تجري داخل عروقي وتغلي داخل أذنيّ. حين رآني، نهض من مكانه وأمسكني من كتفيّ، ولاحظتُ أنّ فمهُ متورّم للغاية، ما جعلهُ يتحدّث بصعوبة. عندما أردتُ أن أربّت على ظهره لمواساته، ردّني بإشارة من يده، قائلاً:

- لقد جلدوني.

- من فعل بك هذا؟

- رجال «بالبو»، وابن آل «موران».

- ذلك الصبيّ مرّة أخرى...

رغمًا عنّي، ضممتُ قبضتيّ بقوّة، وغضبٌ جافٌّ يجتاحني شيئا فشيئا.

- هل تريدني أن أقتله يا «توم»؟

- لا يا «لي». لا يمكننا فعلُ ذلك. لو قمت بذلك، ستنتهي حياتك. أنت محظوظ لأنّك لا تحملُ علاماتنا[1].

- ولكنّك أفضل منّي يا «توم».

(1) المقصود: «لست أسود البشرة مثلنا».

- انظر إلى يديّ يا «لي»، انظر إلى أظفاري، وشعري وشفتيّ. أنا أسود يا «لي». لا يمكنني الهروب من هذه الحقيقة. أمّا أنت...

توقّف عن الكلام وتطلّع إليّ. لقد بدا لي أنّهُ يحبّني حقّا. بعد برهة من الصمت، استأنف حديثهُ:

- أمّا أنت يا «لي»، فعليك أن تخرج من هذا كلّه. سيساعدك اللهّ كي تخرج من هذا كلّه. سيساعدك الله يا «لي».

- إنّ الله لا يكترثُ لأمرنا.

أجابتني ابتسامتهُ، هو من يعرفُ أنّي لم أعد أعتقدُ في شيء.

- «لي»، أنتَ غادرت هذه المدينة صغيرًا جدّا وفي الأثناء فقدت إيمانك ولكنّ الله سيغفر لك عندما يحينُ الوقت. لك أن تهرب من النّاس ولكن يجب أن تذهب إليه، بقلبٍ وذراعين مفتوحتين.

- قل لي إلى أين تريد أن تذهب يا «توم»؟ هل تحتاجُ مالا؟

- لدّي ما يكفي من المال يا «لي». كلّ ما أردته هو مغادرة المدينة معك. أنا أريدُ...

لاذ بالصّمتِ قليلاً، وبدا لي أنّ الكلمات تخرجُ بصعوبة من فمه المشوّه، قبل أن يواصل حديثهُ:

- أنا أريدُ أن أحرق المنزل يا «لي». لقد بناهُ والدنا الذي ندينُ له بكلّ شيء. صحيح أنّ بشرتهُ تكادُ تكونُ بيضاء يا «لي»، ولكن تذكّر أنّه لم يفكّر يومًا في التنكّر لعرقه. لقد ماتَ شقيقنا يا «لي» ولا يجب أن

يمتلك أحدٌ هذا المنزل الذي بناهُ والدنا بيديه الزنجيّتين.

أمام حُجّتِهِ القوّية، لم أجد ما أجيبهُ به، لذا ساعدته على حزم أمتعته ثمّ كدّسناها في سيّارة «الناش». لقد كان منزلنا، المعزول تماما، يقعُ عند أطراف المدينة. تركتُ «توم» ينهي ما اعتزم فعلهُ وخرجتُ لترتيب الحقائب داخل السيّارة. التحق بي بعد بضعِ دقائق، وقال:

- هيّا، لنغادر هذا المكان طالما أنّ الوقت لم يحن بعد كي تسود العدالة على الأرض وتنصف الرجال السود.

أوّل الأمر، رأيتُ نورًا أحمر يومضُ داخل المطبخِ قبل أن يتوهّج دفعة واحدة، ثمّ سمعنا صوت انفجار علبةِ بنزينٍ، ثمّ رأيتُ اللّهب يصلُ إلى نافذة الغرفة المجاورة، ثمّ ألسنته وهي تندفعُ من خلال الجدار الخشبيّ، ويستحيلُ إلى حريقٍ ساهمت الرّيحُ في تأجيجه. وبينما كانت ألسنة اللهب تتراقصُ حول المنزل، التمع وجهُ «توم» بحبات العرق واللّهب الأحمر ينعكسُ على وجهه، لأرى بعدها دمعتين ثقيلتين تسيحان على وجنتيه. بعد ذلك، وضع يده فوق كتفي وعدنا إلى السيارة استعدادا للمغادرة.

كنتُ متأكّدًا أنّ بوسعِ «توم» بيع المنزل، ما يمكنّهُ، بعد تحصيل ثمنهِ، من أن يحيل حياة آل «موران» إلى جحيم، وأعرفُ أيضا أنّ في مقدورهِ أن يقتل الأب وابنه، ومع ذلك، لم أشأ أن أمنعه من تنفيذ فكرتهِ، إذ أنّي أنا أيضا طالما نفذّتُ ما فكّرت فيه. لقد رسخت تلك الأحكامُ المسبقة عن الخيرِ والالتزامِ بالعقيدةِ في ذهن «توم»، ولم يشكّك فيها، وهو ما أفسد حياتهُ، إذ يعتقدُ أننّا حين نكونُ طيبين وخيّرين سنجني ثمار

ذلك طيبةً وخيرًا، ولكنّه لم يكن يعرفُ أنّ ذلك نادر الحدوث. لطالما اعتقدت أنّ الانتقام هو الأمر الوحيد الذي يستحقّ عناء الايمان به، ذلك الانتقامُ الكاملُ. لقد تذكّرتُ الصبيّ الذي كان أكثر بياضًا منّي -لو صحّت العبارة- وكيف انفتحت أبوابُ الجحيم في وجهه، حالما سمع أبو «آن موران» بخبر علاقتهما. ولئن لم يسبق للصبيِّ أن غادر المدينة، فإنّي بقيتُ بعيدًا عنها طوال عشرة أعوام، مرتبطا بأناسٍ لا يعرفون جذوري، إلى أن تخلّصتُ شيئًا فشيئًا من ذلك التواضع البائس الذي نما داخلنا، وكأنّهُ فكرة، تواضعٌ كريه يدفعُ بكلمات الإشفاقِ إلى شفتي «توم» الممزّقتين، بل تواضعٌ لا يختلفُ في شيء عن الرعب الذي يدفعُ إخوتنا إلى الاختباء كلّما سمعوا وقع خطوات الرّجل الأبيض. ومع ذلك، كنتُ أعرفُ أنّه إذا امتلكنا لون بشرتهِ، سنتفوّق عليه، لأنّه كائنٌ ثرثار يكشفُ عن ضعفه أمام من يعتقدُ أنّهم يشبهونهُ. إنّ معرفتي تلك هي ما جعلني بالنّهايةِ أتفوّقُ على «بيل» و«ديك» و«جودي»، رغم أنّي لم أر فائدة في أن أقول لهم إنّ «رجلا أسودًا» نجح في خداعهم. قريبًا، سأظفرُ بانتقامي من آل «موران»، بل ومنهم جميعًا، حالما أنتهي من «لو» و«جان أسكيث». ستدفعُ الفتاتان ثمنَ ما حدث للصبيّ، ولن أتركهم يقتلونني مثلما قتلوا أخي.

كان «توم» قد غفا داخل السيّارة، فأسرعتُ أكثر. عليّ أن أقود السيّارة إلى المحوّل الجانبي عند تقاطع «مورشيسون»، ومن هناك سيأخذ «توم» الطريق السريعة في اتجاه الشمال بعد أن قرّر الذّهابَ إلى «نيويورك».

لقد كان «توم» رجلا شجاعا رغم أنّه عاطفيّ ومتواضعٌ للغاية.

(9)

عدتُ إلى المدينةِ في اليوم التالي، واستأنفتُ عملي دونَ أن أحظى بالنوم، لأنّي لم أكن أشعر بالنعاس. بقيت أنتظرُ اتصال إحدى الفتاتين، وهو ما حدث حوالي الساعة الحادية عشر صباحًا، عندما رنّ الهاتفُ وأتاني صوتُ «جين آسكيث» تدعوني، أنا و«ديك» وأصدقاء آخرين، إلى القدوم إلى منزلها لقضاء عطلة نهاية الأسبوع. وافقتُ، بالطّبع، محاولاً ألاّ أظهر تحمّسي. ثمّ قلتُ لها:

- سأحاولُ القدوم.

ألحّت على الجانب الآخر من الخطّ:

- رجاءً تعال.

قلتُ ساخرًا:

- أهذا الحدّ تفتقدينَ إلى الرّجال؟ يخيّلُ إليّ أنّك تعيشين وسط صحراء قاحلة.

- الرّجالُ في هذه النّواحي لا يعرفون كيف يهتمون بفتاة ثملت كثيرًا.

أصابتني كلماتها بالبرود وشعرت هي بذلك لأنّي سمعتُ ضحكة خفيفة على الجانب الآخر من الخطّ. ثمّ ما لبثت أن قالت:

- تعال، أرغبُ في رؤيتك حقا يا «لي أندرسون»، زد على ذلك، ستسعدُ «لو» برؤيتك.

- قبّليها نيابة عنّي، وقولي لها أن تقبّلك هي أيضا نيابة عنّي.

عدتُ بعد ذلك إلى العمل بحماسةٍ أكبر، شاعرًا بأنّي أفضل حالاً. وعندما حلّ المساء، ذهبتُ إلى المجّمع التجاري للقاء أفراد العصابة، قبل أن أرحلَ مع «جودي» و«جيكي» في سيّارتي «الناش». قد لا تعدُّ السيّارة أكثر الأماكنِ المريحة لممارسة الحبّ، ولكن بوسعِ المرء دائمًا أن يعثر فيها على زاوية جديدة لممارستهِ. لقد كانت ليلة أخرى استطعتُ فيها أن أنام ملء جفنّي.

في صباح اليوم التالي، ذهبتُ لشراء ما ينقصني من أشياء بدت لي ضروريّة كأدوات الحمام وحقيبة محمولة ومنامتين جديدتين زيادة على بعض الأشياء الصغيرة الأخرى، أشياءٌ لم تكن مهمّة ولكني شعرتُ بأنّها تنقصني، خصوصًا أنّي لا أريدُ أن أبدو كمتشرّدٍ في منزل أولئك الناس، ولذا حدّدتُ ما ينقصني تقريبًا لئلاّ أعطيهم ذاك الانطباع.

في مساء يوم الخميس، في ذلك الأسبوع، كنتُ قد أنهيتُ حساباتي وتعمير جداول خروج الكتب ودخولها، لّما رأيت سيّارة «ديكستر» تتوقّفُ أمام الباب، حوالي السّاعة الخامسة والنصف. كنتُ قد أغلقتُ المتجر، لذا ذهبتُ كي أفتح لهُ الباب، وحينَ دخلَ، بادرني قائلاً:

- مرحبا «لي». هل نسقُ المبيعات جيّد؟

- الأمور ليست سيّئة يا «ديكس». كيف هو الحال مع دراستك؟

قال ساخرًا:

- أوه...إنّها متعثّرة قليلاً. لعلّكَ تعلمُ أني لا أحبّذُ أن أكون في فريقي «البايزبول» أو «الهوكي» لأكونَ طالبًا مشهورًا.

- ما الذي أتى بك؟

- أتيتُ لدعوتك إلى العشاء في مكانٍ مّا، وبعدها سآخذك إلى مكانٍ بعيدٍ كي تجرّبَ واحدة من متعي الصغيرة التي أفضلها.

- موافق يا «ديكس». أعطني خمس دقائق.

- سأنتظرك في السيّارة.

أخفيتُ الأوراق والمال داخل الخزانة وأنزلتُ ستار المتجر الحديديّ ثمّ خرجتُ من الباب الخلفيّ بعد أن أخذتُ سترتي. بدا الطقسُ في الخارجِ ثقيلاً وحارًّا للغاية مقارنةً بما يفترض أن يكونَ عليه فصلُ الشتاء الذي حلّ باكرًا، حتّى إنّ الهواءُ بدا رطبًا ودبقًا، ما يجعلُ أيّ شيء يلتصقُ بالجلد.

عندما خرجتُ، سألتُ «ديكس»:

- هل آخذ الغيتار معنا؟

- لا لزوم لذلك. هذا المساء، أنا من سيتولّى أمر اللهو.

- هيّا بنا.

جلستُ في المقعد الأمامي إلى جانبهِ. الحقّ أنّهُ لا وجه للمقارنة بين سيارته «الباكارد» وسيّارتي «الناش»، ومع ذلك لم يكن ذلك الصبيّ يحسنُ القيادة، إذ لا بدّ أن يكون المرء سيّئا كفاية ليجعل محرّك سيارة «باكارد»، من طراز «كليبر»، يصدرُ أنينًا، وهو يسيرُ بتلك السرعة البطيئة.

قلتُ له:

- إلى أين تأخذني يا «ديكس»؟

- سنذهبُ أولا إلى نادي «ستورك» لتناول العشاء ومن ثمة سآخذك إلى المكان الذي حدّثتك عنه.

- أظنُّ أنّك ستذهب إلى منزل آل «آسكيث» يوم السبت، أليس كذلك؟

- أجل. سآخذك معي بالسيّارة إذا أردت.

لقد وجدتُ أنّها طريقة مثلى لئلاّ أذهب هناك بسيّارتي «الناش»، لا سيّما أنّ المراهنة على كفيلٍ مثل «ديكستر» دائما ما تؤتي ثمارها، لذا قلتُ له:

- شكرًا. يسرّني قبول ذلك.

- «لي»، قل لي هل تلعب «الغولف»؟

- لقد جرّبت ذلك مرّة واحدة فقط.

- قل لي إذن، هل اشتريت زيّ الغولف والعصيّ معه؟

- مطلقًا! من تظنني أكون؟ «جي بي مورغان»؟[1]

- لآل «آسكيث» ملعب غولف، لذلك أنصحك أن تقولُ، عندما يسألونك، إنّ الطبيب منعك من ممارسة هذه اللعبة.

قلتُ مزمجرًا:

- هل تعتقدُ أنّهم سيصدّقونني؟

- ماذا عن «البريدج»؟

- أوه! ألعبُ بطريقة مقبولة.

- مقبولة أم جيّدة؟

- مقبولة فحسب.

- أنصحك إذن أن تقولُ إنّ لعب «البريدج» يشكّلُ خطرًا على صحّتك.

قلتُ مصرًّا:

- مع ذلك، باستطاعتي لعب «البريدج».

- هل باستطاعتك أيضا أن تخسر خمسمائة دولار فقط لأنّك تصرّ على اللعب؟

- سيزعجني ذلك.

---

(1) جي بي مورغان (1913-1837): رجل أعمال أمريكي شهير وأحد أكبر المهيمنين على قطاع المصارف في وقته.

- إذن، سيكون من الأفضل لك أن تتبع نصيحتي.

قلتُ ساخرًا:

- لديك الكثير من النصائح الرّائعة هذا المساء يا «ديكس». إذا أردت أن تقول لي إنّي مفلسٌ جدّا مقارنة بهؤلاء النّاس، فقل ذلك حالاً و... ولنفترقْ.

- أرى أنّه عليك أن تشكرني يا «لي» لأن كلّ ما قدّمتهُ لك من نصائح هو ما سيجعلك قادرًا على التعامل مع أولئك النّاس، مثلما تطلق عليهم.

- إنّي أتساءل فحسب عن سرّ اهتمامك بهذا الأمر.

- أوه، يهمّني ذلك.

صمت لبرهة ثمّ داس على الفرامل فجأة كي يتوقّف أمام إشارة حمراء. لوهلة، تأرجحت بنا سيارة «الباكارد» إلى الأمام قليلا فوق نوابضها، قبل أن تستقرّ في مكانها. انتهزتُ الفرصة واستأنفتُ حديثي:

- أنا لا أفهم فيم يعنيك هذا.

- كلّ ما أودُّ معرفته هو ما الذي تريدهُ من تينك الفتاتين؟

- أرى أن كل فتاة جميلة تستحقّ أن يهتمّ المرء لأمرها.

- لديك العشرات منهنّ تحت قدميك، وهنّ جميلات أيضا كما أن امتلاكهنّ أسهلُ كثيرًا.

- لا أظنّ أن الشطر الأوّل من جملتك صحيح، ولا حتى الشطر الثاني.

نظر إليّ وكأنّهُ يدبرّ شيئا ما داخل رأسه إلى حدٍّ فضّلتُ معه أن يركّز نظراته على الطريق أمامه. ثمّ ما لبث أن قال:

- أنت تدهشني يا «لي».

- بصراحة، أجد أنّ هاتين الفتاتين تناسبان ذوقي.

- نعم أعرفُ أنّك تحّب ذلك النوع من الفتيات.

تيقّنتُ أنّه قصد شيئا آخرَ بجملته الأخيرة، لذا قلتُ مؤكّدًا:

- لا أعتقدُ أنّ مضاجعتهما ستكونُ أصعب من مضاجعة «جودي» و«جيكي».

- هل تبحثُ عن مضاجعتهما فحسب يا «لي»؟

- نعم، هذا فحسب.

- إذن، يجدرُ بك أن تكون حذرًا. أنا لا أعرفُ ما الذي فعلتهُ بـ«جين»، ولكن عندما تحدّثت معها على الهاتف لمدة خمس دقائق، تدبّرت أمرها كي تنطق اسمك أربع مرّات.

- أنا مسرور لأني تركتُ لديها هذا الانطباع.

- هما ليستا من أولئك الفتيات اللائي تضاجعهنّ دون أن تتزوّجهنّ. على الأقلّ، أنا أراهن على هذا. وكما تعلم يا «لي»، أنا أعرفهما منذ عشر سنوات.

- حسنًا إذن، أظنّ أنيّ رجلٌ محظوظ، فأنا لا أنوي أن أتزوّج بهما رغم أنّي أعتزمُ مضاجعتهما.

لم يجبني «ديكستر» ونظر إليّ ثانية. تساءلتُ في سرّي: هل روت لهُ «جودي» ما فعلناهُ في منزل «جيكي» أم أنّه لا يعرف شيئًا؟ أعتقدُ أنّ ذلك الفتى قادر على تخمين ثلاثة أرباع ما حدث حتى وإن لم يخبره أحدٌ بذلك. فجأة قال لي:

- انزل.

عندئذٍ أدركتُ أنّ السيارة توقفت أمام نادي «ستورك»، فنزلت.

بعد ذلك، تبعني ديكستر إلى الدّاخل، وقد تركنا قبعاتنا لدى فتاة سمراء، نقدها «ديكستر» إكراميّة. ثمّ قادنا نادلٌ، أعرفهِ جيّدًا، إلى الطاولة التي حجزها «ديكستر» لنا. كان النادلُ يرتدي زيّ الندل المميّزِ وهو ما ذكّرني بمحاولات مالكي الحانة تقليدَ مطاعم المدن الكبيرة، إلاّ أنّ النتيجة بدت مضحكة. في الطريقِ إلى طاولتنا، توقفتُ لإلقاء التحيّة على «بلاكي»، قائد الفرقة الموسيقية. لم تكن ساعةُ الكوكتيل[1] قد انتهت بعدُ فيما انهمكت الفرقة في عزفِ لحنٍ راقص. لقد تعرّفتُ أيضا على أغلب الحرفاء بمجرّد النظر إليهم، رغم أنّي غالبًا ما أراهم من فوق خشبة المسرح، حين أعوّضُ عازف الغيتار، وشعرتُ بأنّ ما يثيرُ الاستمتاع حقّا هو أن يجد المرءُ نفسه فجأة بين أعدائهِ، وسط الجمهور.

(1) في المطاعم الفاخرة، ساعة الكوكتيل هي تلك الفترة التي تسبق العشاء، والمخصصة للشراب وتبادل الأنخاب.

وبعد أن جلسنا، طلب «ديكستر» كأسين من المارتيني المزدوج، قبل أن يقول لي:

- «أندرسون»، لا أرغب في استئناف الحديثِ عن تلك المسألة، ولكن عليك أن تتوخّى الحذر مع تينك الفتاتين.

- أنا حذرٌ دائمًا. لا أعرفُ ما الذي قصدتهُ أنت بالضبط ولكنّي عموما أعرفُ ما أفعلهُ.

لم يجبني بل غيّر الموضوعَ بعد دقيقتين، وقد بدا لي أنّ بإمكانهِ أن يصبح متحدّثًا لبقًا، كلّما تخلّص من طريقته المتعجرفة في الكلام.

(10)

كنّا ثمليْن جدّا حين غادرنا الحانةِ، لذلك قرّرتُ أن أقود السيّارة دون أن أبالي باحتجاجات «ديكستر» الذي قلتُ له:

- لا أريدُك أن تتسبّب في تشويه وجهي الجميل قبل موعد يوم السبت القادم. لاحظ أنّك تنظرُ دائمًا إلى مكان آخر أثناء القيادة ولطالما أشعرني ذلك بأنيّ سألقى حتفي على يديك.

- ولكنك لا تعرفُ الطريق يا «أندرسون».

- وماذا في ذلك؟ بإمكانك أن تصفهُ لي.

- لم يسبق لك أن ذهبت إلى ذلك الحيّ يا «أندرسون»، زد على ذلك، سأجدُ صعوبة في إرشادك إليهِ.

- أوه، لا تكن سخيفًا يا «ديكس». ما اسم الشارع؟

- حسنًا، اذهب بنا إلى المربّع السكني رقم 300 في شارع «ستيفن».

- هل هو في هذا الاتجاه؟ قلتُ وأنا أشيرُ بإبهامي، كما اتفق، في اتجاه الحيّ الغربيّ.

- أجل. قل لي هل تعرفُ أين يقع الحيّ؟

قلتُ مؤكدًا:

- أنا أعرفُ كلّ شيء. هيّا اربط حزامك، سننطلق الآن.

إنّهُ لأمرٌ ممتعٌ أن أقود سيّارة «الباكارد» التي لم يكن «ديكس» يحبّها بل يفضّل عليها سيّارة أبيه «الكاديلاك»، حتّى إنّ قيادتها بدت لي متعةً خالصة مقارنة بقيادة سيّارتي «الناش». بعد فترة من الصمت، سألتُ «ديكس»:

- هل المرّبع السكنّي الذي نقصدهُ يقع في شارع «ستيفن»؟

- بل قريبًا منه.

بدا متماسكًا مثل شجرة بلّوط رغم ما يسري في عروقهِ من كحولٍ، حتّى إنّ من يشاهدهُ يخالُ أنّه لم يشرب شيئًا. كان شارع «ستيفن» يبدأ حقًا من وسطِ ضاحية المدينة الفقيرة، وما إن وصلنا إلى المربّع السكنّي رقم 200 حتّى قدتُ السيّارة وسط مجموعة من المساكن الرّخيصة، تليها مجموعة أكواخٍ مكوّنة من طابق واحدٍ، بدت أكثر بؤسًا من سابقاتها. عندما وصلنا إلى المرّبع السكنّي رقم 300، بدت لنا الأكواخُ كأنّها تتماسكُ بصعوبة كي لا تنهار، كما لاحظتُ وجود عدد من السيّارات القديمة مركونة أمام المنازل، أغلبها من طراز «فورد موديل تي»[1]. بعد ذلك، أوقفتُ سيّارة «ديكس» عندما أشار إليّ بذلك، قبل أن يقول:

---

(1) «فورد موديل تي»: سيارة تم انتاجها من قبل هنري فورد في شركة فورد للسيارات من سبتمبر 1908 إلى أكتوبر 1927. تعتبر أوّل سيارة تباع بأسعار معقولة لأفراد الطبقة المتوسطة الأمريكية.

- تعال يا «أندرسون»، سنتمشّى قليلاً.

أغلق أبواب السيّارة وبدأنا نمشي قبل أن ينحرفَ داخل طريقٍ جانبيّةٍ، لنسير مائة مترٍ أمام صفّ من الأشجار والأسيجة المهدّمة. بعد ذلك، توقف «ديكس» أمام مبنى مكوّن من طابقين، تغطّي الألواح الخشبيّة نصفه العلوّي، وقد بدا لي من قبيل المعجزة أن يظلّ سياجه الحديديّ في حالٍ حسنة، وقد أحاط بكومةٍ من النفاياتِ تشكّلُ حديقة. تجاوز «ديكس» السيّاجَ دون أن يقرعَ الجرس، فيما حلّ الظلامُ بالخارجِ، وعجّت زوايا الحيّ بالظلال الغريبة. ثمّ التفت لي قائلاً:

- تعال يا «أندرسن». لقد وصلنا.

- أنا قادم.

رأيتُ نبتة من جنس «صريمة الجدي»[1] مزروعة أمام المنزل، وعلى الرغم من أنّها النبتةُ الوحيدة في المكان، إلاّ أن رائحتها كانت كافية لتغطّي الروائح الكريهة المنبعثة من النفايات المكدّسة في الأرجاء. وبعد أن صعد «ديكس» درجتي المدخل الملاصقِ للمنزل وقرع الجرس، قدمت سيّدة زنجّية ضخمة لتفتح الباب، ودون أن تنبس بكلمة، أدارت ظهرها لنا، فتبعها «ديكس» أوّلاً إلى الدّاخلِ ثمّ لحقتُ به بعد أن أغلقتُ الباب ورائي.

عندما دخلنا الغرفة الأولى، انتحت الزنجّيةُ جانبًا كاشفةً عن غرفة صغيرة دلفنا إليها، وجدنا فيها أريكة، وقارورة شرابٍ وكأسين،

(1) صريمة الجدي أو العسلة: جنس نباتي يستخدم للزينة.

وطفلتين، سنّهما بين إحدى عشرة واثنتي عشرة سنة. كانت الصبيّةُ الأولى صهباء، ممتلئة، مغطاة بالنمش. أمّا الثانية، فكانت زنجيّة، وبدت لي أنّها تكبر الأخرى سنّا. كانتا تجلسان بأدبٍ فوق الأريكة، وقد ارتدت كلّ منهما بلوزة وتنورة قصيرة للغاية. وما لبثت الزنجّيةُ أن وجّهت حديثها لهما:

- ها هما سيّدان قدما إليكما ببعض المال. كونا مهذّبتين معهما.

ثمّ أغلقت الباب وتركتنا. حينئذٍ، صوّبتُ نظراتي إلى «ديكستر» الذي قال:

- اخلع ملابسك يا «أندرسن»، فالجوّ حارّ هنا.

ثم استدار نحو الطفلة الصهباء قائلاً:

- تعالي ساعديني يا «جو».

- اسمي «بوللي»، قالت الطفلة. هل ستعطيني دولارات؟

- بالتأكيد.

أخرج من جيبه ورقة مالية مجعّدة من فئة العشر دولارات ورماها إلى الطفلة.

- تعالي ساعديني على نزع سروالي.

بقيتُ ثابتًا في مكاني، وأنا أتطلّعُ إلى الصبيّة الصهباء وهي تنهضُ من مكانها، مخمّنًا أنّها ذات ألاثنتي عشرة سنة، على الأرجح، ومع ذلك بدت لي عجيزتها ممتلئة من تحت تنورتها القصيرة. في الأثناء، فطنتُ إلى أنّ «ديكستر» يتطلّعُ إليّ، قبل أن يقول لي:

- سآخذ الصهباء.

- هل تعرفُ أننا قد نسجن بسبب هذا؟

لكنّه ردّ بعنف:

- هل هو لون بشرتها ما يزعجك؟

لقد كان ذلك إذن ما أعدّهُ لي حينما دعاني، حدّثتُ نفسي. بقيَ يحدّق فيّ، بتسريحة شعره المنسدلة فوق عينه، وأدركتُ أنّهُ ينتظرُ ردّة فعلي، ومع ذلك أظنّ أنّي نجحتُ في ألاّ أظهر له شيئا ممّا يعتملُ داخلي. في الأثناء، ظلّت الطفلتان ساكنتين، وقد بدا عليهما شيء من الفزع. بعد برهة من الصمتِ، وجّه «ديكس» كلامه للصبيّة الصّهباء:

- تعالي يا «بوللي». هل تريدين كأسًا؟

- لا رجاءً، شكرًا لك. بإمكاني أن أساعدك دون أن أشرب.

وفي أقلّ من دقيقة، كان عاريًا. بعد ذلك، أمسك الطفلة وأجلسها فوق ركبتيه رافعًا تنورتها، وقد احمرّ وجهه وصدرهُ يلهجُ بعنفٍ.

- أنت لن تؤذيني، أليس كذلك؟، قالت الصهباء، فردّ عليها «ديكس» قائلاً:

- هيّا كوني مطيعة وإلاّ لن أعطيك الدولارات.

ثمّ دفعُ يدهُ بين فخذيها فشرعت الطفلة في البكاء.

- اصمتي! اصمتي أو سأجعلُ «آنا» تضربك.

ثمّ أدار رأسه نحوي، أنا الذي لم أتزحزح من مكاني، إذّاك كرّر

جملته السّابقة:

- هل هو لون بشرتها ما يزعجك؟ هل تريد أن تأخذ طفلتي؟

- لا، شكرًا.

ونظرتُ إلى الطفلة الأخرى. لقد كانت تهرشُ رأسها خالية الذهن ممّا يدورُ حولها، وبدا لي أنّها تمتلكُ جسد امرأة بالفعل، فقلتُ لها:

- تعالي!

- هيّا، يمكنك فعلها يا «لي»، قال «ديكس». لا تخش شيئا فهما نظيفتان.

قبل أن يصرخ مرّة أخرى في وجه الصّهباء:

- اصمتي!

توقفت «بوللي» عن البكاء وأخذت نفسًا عميقًا، ثمّ قالت:

- أنت أضخمُ منيّ. ما تفعلهُ بي يؤلمني.

- اخرسي! سأعطيك خمسة دولارات إضافيّة.

ثمّ شرعَ يلهثُ مثل كلبٍ، وهو يمسكها من فخذيها قبل أن يطأها على المقعد، ودموعها تسيلُ على وجنتيها دونَ أن يبدر منها أيّ صوتٍ.

في الاثناء، كانت الطفلة الزنجيّة تنظرُ إليّ. فقلتُ لها:

- اخلعي ملابسك. هيّا اذهبي واضطجعي فوق الأريكة.

حينئذٍ، خلعت سترتي وفككتُ حزام سروالي، ثمّ وطأتها. لقد بدا لي شيؤها ساخنًا مثل تنوّر، وهي تطلقُ صرخةً خفيفة.

(11)

لم أكن قد عاودتُ رؤية «ديكستر» بعد تلك الليلة، عندما حلّ يوم السبت، لذا قرّرتُ أن أركب سيّارتي «الناش» وأذهب إلى منزله، وقد حدّثتُ نفسي بأن أترك سيّارتي في مرآبه إذا قرّر الذهاب معي إلى منزل آل «آسكيث»، أو أنطلقَ بها مباشرة إلى «بريكسفيل» لو رفض ذلك.

تركتهُ مريضًا مثل خنزير في الليلةِ السّابقة، ورجّحتُ أنّه شربَ كثيرًا، ربّما أكثر ممّا توقّعتُ، خصوصًا بعد أن شرع في إلقاء النكات ليلتها. ستحتفظُ الصّغيرة «بوللي» بعلامة على نهدها الأيسر، بعد أن عنّ لذلك الأحمق أن يعضّها وكأنّه مصابٌ بداء الكلب، وقد افترض أنّ دولاراته ستجعلها تهدأ على الأرجح، ولكن حينَ ركضت الزنجيّة «آنا» باتجاهِ الغرفة، وقد تناهى إليها صراخ الطفلة، صرخت في وجهه مهدّدة بعدم استقبالهِ مرّة أخرى، لحظتها تأكدتُ أنّها ليست المرّة الأولى التي يتردّد فيها على ذلك المنزل. وعلى الرغم من صراخ الزنجيّة، لم يشأ إفلات «بوللي»، ما جعلني أخمّنُ أنّ رائحة بشرتها الصهباء قد تكون خلبت لبّه. لقد اضطرّت «آنا» إلى أن تضعَ ما يشبهُ

الضمّادة فوقَ مكان العضّة وأعطت الطفلة مسكّنًا، ومع ذلك تركتها لـ«ديكس» المنهمك في تمرير لسانه فوقها من الأعلى إلى الأسفل، وأصواتٌ كريهة تصدرُ من حلقه.

في تلك اللحظة، أدركتُ ما كان يشعرُ بهِ، فأنا أيضا، لم أشأ أن أتوقف عن مضاجعة تلك الطفلة السوداء، متوخيًا الحذر لئلاّ أؤذيها، رغم أنّها لم تشتكِ مرّة واحدة، مكتفية بإغماضِ عينيها فحسب.

وهو ما جعلني أتساءلُ بالنّهاية حول مدى جاهزّيةِ «ديكس» لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في منزل آل «آسكيث»، فأنا نفسي كنتُ قد استيقظتُ في حالة من التشوّش الذهنّي بعد تلك الليلة، لم أخرج منها إلاّ بعد ذهابي في التاسعة صباحًا إلى حانة «ريكاردو»، وشربتُ كأسين من شراب «الزومبي» القويّ، شرابٌ تكفي كأسان منهُ كي يستعيد أيّ شخصٍ توازنه. وبصراحة، لم يسبق لي أن شربتُ قبل قدومي إلى «بوكتن»، ثمّ أدركتُ بعد ذلك خطئي، حينَ عرفتُ أنّ على المرء أن يأخذ كفايته من الشّراب، لا سيّما أنّه لا توجد طريقة أفضل منهُ تجعلُ الذهن أكثر صفاءً. وهذا ما يفسرّ أنّي شعرتُ ذلك الصباح بأنّ كلّ شيء على ما يرام، عندما أوقفتُ سيّارتي أمام منزل «ديكس»، بل وشعرتُ بأنّي أفضلُ حالاً من ذي قبل.

وعلى العكسِ ممّا كنتُ أتوقّعهُ، وجدتهُ ينتظرني بالفعل، حليقًا ومرتديًا بذلة رمليّة اللون من نسيج «الغبردين»[1]، وقميصا يحملُ اللونين، الرماديّ والورديّ. وما إن رآني حتّى بادرني بالسّؤال:

(1) نسيج الغبردين هو قماش خشن ومتين ومنسوج بشكل دقيق.

- قل لي، هل أفطرت يا «لي»؟ فأنا لا أحبّ أن أتوقّف أثناءَ الطريق لتناول الطّعام، وأفضّل أن أحتاطَ قبل السّفر.

بدت لي تلك النسخةُ من «ديكستر» واضحةً، بسيطةً وبريئةً، وكأنّي أمام طفل، تعكسُ عيناهُ، على الرغمِ من ذلك، حقيقةَ أنّهُ يعرفُ أكثر مما تسمح له سنوات عمره.

أجبتهُ قائلاً:

- لن أمانع في تناول القليل من اللحم المقدّد والبيض، مع بعض الخبز والمربّى.

إثر ذلك، قدّم لي الخادمُ الفطورَ بعناية كبيرة. ولئن كنتُ أكرهُ أن يشاركني أحد مّا طعامي، إلاّ أنّ ذلك بدا أمرًا عاديّا لـ«ديكستر». وما إن انتهينا من تناول الإفطار، حتّى خرجنا من المنزل على الفور، ثمّ قمتُ بحمل حقائبي من سيّارتي «النّاش» إلى سيّارة «الباكارد»، بينما جلسَ «ديكستر» على يمين مقعد السّائقِ، وهو يقولُ لي:

- قُد أنت السّيارة يا «لي»، أرى أنّ ذلك سيكون أفضل.

ثمّ وجّه إليّ تلك النظرة الاستعلائيّة، ما جعلني أدركُ أنّ تلك النظرة هي تلميحهُ الوحيد لما حدث في الليلة السابقة. لقد بدا لي مزاجهُ ساحرًا، فيما تبقّي من الطريق، حتّى إنّهُ روى لي قصصا كثيرة عن السيد والسيدة «آسكيث»، قائلاً إنّهما وغدانِ رائعانِ ورثا الكثير من المال، وهو أمر لا يلامانِ عليهِ، لكنّهما بالمقابل تعوّدا على استغلال أناسٍ، ذنبهم الوحيد أنّ ألوان بشراتهم تختلفُ عن لون بشرتيهما،

لاسيّما أنّهما يمتلكان الكثير من مزارع قصب السّكر في نواحي «جامايكا» أو «هايتي» علاوة على أنّ شرابهما المنزليّ المفضّل هو «الرّوم»، كما ادّعى «ديكس» ثمّ أضاف:

- إنّه أفضل من «زومبي» حانة «ريكاردو» وأقوى يا «أندرسن».

أجبتهُ مؤكّدًا:

- إذن، لن أتردّد في شربه.

ثمّ ضغطتُ على دوّاسة الوقود بقوّة.

قطعنا المائة ميل فيما يزيدُ قليلاً عن الساعة، وحين بلغنا «بريكسفيل»، شرع «ديكستر» في توجيهي. إنّ «بريسكفيل» مدينة أصغر من «بوكتن» ولكنّ منازلها تبدو أكثر فخامة وحدائقها أكبر، فهي من ذلك النوعِ من المدنِ الجاذب للأثرياء.

كانت بوابة منزل آل «آسكيث» مفتوحة، حينَ وصلنا، فصعدتُ المنحدر المفضي إلى المرآب في أقل من ثانية، دونَ أن يصدر محرّك السيّارة أيّ حشرجة كما حصل مع «ديكس»، ثمّ قمتُ بركن العربة وراء سيّارتين كانتا رابضتين في المرآب. وحين أبصرتهما، قلتُ لـ«ديكس»:

- يبدو أنّ حرفاء آخرين موجودون هنا.

- لا. إنّهما هما سيّارتا آل «آسكيث». أظنُّ أنّنا أوّلُ الوافدين. ثمّة مدعوونَ غيرنا، من أبناء هذه المدينة، إذ أنّهم يدعون أنفسهم إلى هنا، بالتداولِ، هربًا من الملل في منازلهم. ربّما عليّ

أن أقول إنّهم نادرًا ما يطيقون البقاء في منازلهم.

رددتُ عليه ببرودٍ يحملُ نبرة سخرية:

- آه، أتفهمّ ذلك. لا بدّ أنهم يمرون بأوقات عصيبة.

أضحكتهُ عبارتي وترجّلنا من السيّارة ثمّ شرعنا في إخراج حقائبنا، قبل أن نجد أنفسنا وجها لوجه مع «جين آسكيث». لقد كانت تمسكُ مضرب تنس، مرتدية سروالاً قصيرًا، أبيض اللون، وسترة زرقاء، خمنتُ أنّها ارتدتها لتوّها، بعد أن أنهت مباراتها الأخيرة. لقد بدا نصفُها العلوّي محشورًا داخل السترة الضيّقة، ما أصابني بالذّهول. بادرتنا قائلة:

-أوه! أنتما هنا إذن !

بدت سعيدة لرؤيتنا، وهي تضيف:

- تعالا معي لتتناولا بعض الشراب المنعش!

نظرتُ إلى «ديكس»، الذي نظر إليّ بدورهِ، ثمّ تبادلنا إيماءتي موافقة في الوقت نفسهِ. ثمّ سألها «ديكس»:

- أين «لو»؟

- لقد صعدت لتوّها. عليها أن تغيّر ملابسها.

قلتُ متشكّكًا:

- أوه.....! قولي لي، هل ترتديان أيضًا ملابس خاصّة بلعبة «البريدج»؟

ما إن قلتُ ذلك حتّى انفجرت «جين» ضحكًا، قبل أن تجيبني:

- ما قصدتهُ هو أنّها صعدت لتغيير سروالها القصير. بإمكانكما أنتما أيضا أن تصعدا إلى الطابق العلوّي لتغيير ملابسكما وارتداء أخرى أكثر راحة، ثمّ تنزلان. سأنادي من يرشدكما إلى غرفتيكما.

علّقتُ ساخرًا:

- آمل أن تغيّري سروالك القصير أنت أيضا. فأنت ترتدينه منذ ساعة على الأقلّ.

تلقيتُ ضربة سريعة على أصابعي من مضربها، وهي تقول مؤكّدة:

- أنا لا أتعرّق مثلها! لقد كبرتُ على هذا.

- هل أفترص أيضا أنّك خسرت المباراة، أليس كذلك؟

- أوه!

وضحكتْ مجدّدًا. لقد كانت تلك الفتاةُ تعرفُ يقينًا أنّ سرّ جمالها يكمنُ في ضحكتها. فجأة سألها «ديكس»:

- إذن، ما رأيك لو انتهزتُ هذه الفرصة ودعوتك إلى لعب شوطٍ معي؟ طبعًا ليس الآن، ولكن غدًا صباحًا.

- سيسعدني ذلك بالتأكيد.

قد أكونُ مخطئًا، ولكنّي شعرتُ في تلك اللحظة، بأنّها تفضّلُ أن أكونَ أنا من يلاعبها. لذلك قلتُ:

- حسنًا. إذا كان هنالك ملعبان، سألعبُ أنا شوطاً مع «لو»، فيما يلعبُ الخاسران ضدّ بعضهما. هيّا يا «جين»، تدبّري أمرك كي تخسري أمام «ديكس»، وتتوفّر لنا الفرصة كي نلعبَ معًا.

- أنا موافقة.

- إذن، بما أنّ الكلّ يغشّ هنا، سأكون أوّل من يخسر.

وما إن أنهى «ديكستر» حديثهُ حتّى انفجر ثلاثتنا بالضحّك. بصراحة، لم يكن ثمّة ما يستدعي الضّحك، إلاّ أنّه كان علينا أن نبدّد التوتّر المخيّم في الأجواء. بعد ذلك، تقدّمتنا «جين» إلى داخل المنزلِ، وأوكلت أمرنا إلى خادمة سوداء، نحيلة للغاية، وتعتمرُ قبّعة بيضاء صغيرة.

(12)

بعد أن غيّرتُ ملابسي داخل غرفتي، التحقتُ بـ «ديكس» والبقيّة في الطابق السفليّ، فاكتشفتُ وجودَ صبيّين وفتاتيْن من «بريكسفيل»، ولاحظتُ أنّ نصابنا كأزواج قد اكتمل. لقد كانت «لو» هناك بينما انهمكت «جين» في لعب «البريدج» رفقة إحدى الفتاتين إضافة إلى الصبيّين. تركتُ «ديكس» معَ الفتاة الأخرى ورحتُ إلى المذياع أديرُ مؤشّره بحثًا عن بعض الأغاني الرّاقصة إلى أن عثرتُ على محطّة تبثُّ برنامجًا موسيقيًا لـ «ستان كنتون»[1]، فأوقفتُ المؤشرّ عند تلك المحطّة، وقد بدا لي ذلك أفضل من لا شيء. في الأثناء، لاحظتُ أنّ «لو» تضعُ عطرًا جديدًا، فضّلتُه على ذاك الذي استخدمتهُ في المرّة السّابقة، ومع ذلك أردتُ أن أشاكسها، فقلتُ:

- لقد غيّرت رائحة عطرك يا «لو».

- هذا صحيح. ألم تعجبك رائحتهُ؟

- بلى، إنّه جيّد، ولكنّي أظنّك تعرفين أنّهُ لا يجدرُ بك فعل ذلك.

---

(1) ستانلي كينتون (1911-1979) قائد أوركسترا وملحن وعازف جاز أمريكي.

- لماذا؟

- لأنّهُ لا يجدرُ بك تغيير عطرك، إذ أنّ السيّدة الحقيقية تظلّ وفيّة لعطرها.

- أين تعلّمت هذا؟

- الجميع يعرفُ ذلك، فهي قاعدة فرنسيّة قديمة.

- ولكننا لسنا في فرنسا.

- إذن، لماذا تستخدمين العطور الفرنسيّة؟

- لأنّها الأفضل.

- هذا مؤكد، ولكن إذا كنتِ تحترمين قاعدة مّا، فسيتعيّن عليك أن تحترمي جميع القواعد.

- حسنًا، قل لي يا «لي أندرسون»، أينَ عثرت على كلّ هذا الهراء؟

أجبتها ساخرًا:

- هذه هي فوائدُ التّعليم.

- قل لي، من أيّ كليّة تخرّجت؟

- من كليّة لا تعرفينها.

- ماذا تعني؟

- لقد درستُ في إنجلترا وإيرلندا وبعد ذلك عدتُ إلى الولايات المتحدة الأمريكية.

- لماذا تحتفظُ بعملك هذا إذن؟ بوسعك أن تجني الكثير من المال.

- أنا أجني ما يكفي لكي أفعلَ ما أريد.

- حدّثني عن عائلتك.

- لديّ أخوان.

- وبعد؟

- مات أصغرهما في حادث.

- والثّاني؟

- ما يزالُ حيّا، ويعيش في «نيويورك».

- أودّ أن أتعرّف عليه...

لقد بدا لي أنّها فقدت ذلك البرود الذي عاملتني بهِ في منزلي «ديكستر» و«جيكي»، ونسيت ما فعلته بها حينها، لكنّي أجبتها قائلاً:

- أفضّل ألاّ تتعرّفي عليه.

لقد عنيتُ ذلك حقّا. ومع ذلك، كنتُ مخطئا حين اعتقدتُ أنّها نسيت ما حدث بيننا، إذ أنّها غيّرت مجرى الحديث، على نحوٍ مفاجئ، وهي تقول:

- لديك أصدقاءٌ ظرفاء.

حين قالت جملتها تلك، كنّا ما نزالُ نرقص، ولم يكن ثمّة، في

الواقع، أيّ انقطاع بين القطع الموسيقية، ما كان يجنّبني عناء الردّ عليها. لكنّها تساءلت:

- ما الذي فعلتهُ لـ«جين» آخر مرّة؟. لقد تغيّرت تمامًا.

- لا شيء. كلّ ما فعلتهُ هو مساعدتها على التخلّص من خُمارِها لاسيّما أنّه ثمة طريقة مشهورة لإنجاح ذلك.

- لا أعرفُ إن كنت تعني ما تقوله حقّا أم تسخر منّي. فمعك، يبدو كلّ شيء جائزًا.

أجبتها مؤكّدًا:

- أوه، أنا شفاف مثلّ بلورة...

كانت هي من لاذ بالصّمتِ هذه المرّة، واستغرقت في الرّقصِ لبضعِ دقائق، مسترخيةً بين ذراعيّ حتّى إنّها بدت لي وكأنّها لا تفكّر في أيّ شيء آخر. ثمّ ما لبثت أن تساءلت:

- تمنّيتُ لو كنتُ معكما أنا أيضا.

- يؤسفني ذلك أيضا، وإلاّ لكنتِ أهدأ بالاً في هذه اللّحظة.

ما إن قلتُ ذلك، حتّى شعرتُ بالحرارة ترتفعُ وراء أذنيّ، وأنا أتذكّرُ جسد «جين». إنّ أقصى ما كنتُ أتمنّاهُ في تلك اللحظة هو أن أضاجعهما معًا ثمّ أجهزُ عليهما في الوقتِ نفسهِ بعد أن أخبرهما بالحقيقة.

أخرجتني من خيالاتي وهي تقولُ:

- لا أعتقد أنّك عنيت ما قلت للتوّ.

- لا أعرفُ ما عليّ أن أفعلهُ حقّا لكي تصدّقي أنّي عنيتُ ذلك.

ما إن قلتُ ذلك حتّى احتّجت بشدّة واصفةً إيّاي بالمتحذلق، قبل أن تتهمني بأنّي أتكلّمُ مثل طبيب نفسيّ نمساويّ. لقد بدا لي أنّها تجاوزت حدودها معي، إلاّ أنّي شرحتُ لها ما أردتُ قوله:

- كلّ ما في الأمر أنّي أردتُ أن أسألك: متى تعرفينَ أنّي أقولُ الحقيقة؟

- صدقًا، عندما لا تتفوّه بأيّ كلمة.

ضممتها بقوّة أكبر، وأنا أقولُ ساخرًا:

- وعندما لا أفعل أيّ شيء أيضا؟

لقد بدا من الواضحِ أنّ ما لمّحتُ إليهِ جعلها تتذكّرُ ما حدث بيننا، إذ أنّها غضّتَ طرفها، لكنّ ذلك لم يدفعني إلى الإستسلامِ بسهولةٍ أمامها. بعد صمتٍ قصير، استأنفت حديثها قائلة:

- هذا يتوقّفُ على ما تريدُ أن تفعله.

- أنت لا توافقين على كلّ ما أفعله، أليس كذلك؟

- لا معنى لذلك إذا كنت تفعلهُ مع الجميع.

في تلك اللّحظة، شعرتُ أنّي أصلُ إلى هدفي رويدًا رويدًا، وأنّها ناضجة تقريبًا، بل إنّ كلّ ما كان ينقصني هو بذلُ القليل من الجهد، لذلك قلتُ وقد أردتُ أن أعرف إن كانت قد نضجت حقّا:

- كلامكِ ملغّزٌ، ما الذي تريدين قوله؟

هذه المرة، لم تخفض عينيها فحسب بل وأطرقت برأسها، حينئذٍ اكتشفتُ كم هي أقصرُ منّي بكثير، لا سيّما وأنا أتطلّعُ إلى تلك القرنفلة البيضاء والكبيرة المغروسة في شعرها. وبعد لحظاتٍ من الصّمت، أجابتني قائلة:

- أنت تدركُ جيّدًا ما أردتُ قولهُ، أقصد ما فعلتهُ بي ذلك اليوم على الأريكة.

- وماذا في ذلك؟

- هل تفعلُ ذلك مع كلّ النساء اللائي تقابلهنّ؟

أثارني سؤالها حتّى ضحكتُ بصوتٍ عالٍ، ما دفعها إلى أن تقرصني من ذراعي، وهي تقولُ:

- لا تسخر منّي، فأنا لستُ حمقاء.

- هذا مؤكّد.

- إذن، ردّ على سؤالي.

- لا. أنا لا أفعل هذا مع كلّ النساء اللائي ألتقيهنّ. وبصراحة، قليلات هنّ النساء اللائي يرغبُ المرء في أن يفعل ذلك معهنّ.

- أنت تسخر منّي، لقد رأيتك تفعلُ ذلك مع صديقاتك.

- هنّ لسنَ صديقاتٍ، بالمعنى الحرفيّ للكلمة، بل رفيقات.

- لا تتلاعب بالكلمات وأجبني هل تفعلُ ذلك مع رفيقاتك؟

- هل تظنّين أنّ بي رغبة في فعل ذلك مع فتياتٍ مثلهنّ؟

أجابتني هامسةً:

- أظنّ ذلك...أعرفُ أنّهُ تأتي على المرء أوقاتٌ يفعل فيها الكثير من الأشياء مع أناسٍ عديدين.

لقد رأيتُ في إجابتها فرصة مواتية كي أحتضنها أكثر، فيما سعت يدي جاهدةً إلى مداعبة نهدها الأيمن في الوقتِ نفسه، لكنّي تسرّعتُ على ما يبدو، إذ أنّها حرّرت نفسها مني برفقٍ ولكن بحزم. ثمّ قالت:

- أنت تعلمُ أنّي شربتُ كثيرًا في تلك الليلة.

- لا أصدّق ذلك.

- أوه! هل تعتقد أنّي كنتُ سأتركك تفعل ذلك بي لو لم أكن ثملة؟

- بالتأكيد.

أطرقت برأسها مجدّدًا، ثمّ رفعتهُ نحوي وقالت:

- هل تعتقد أنّي كنتُ سأرقص مع أيّ كان؟

- أنا رجلٌ نكرة.

- أنت تعرفُ جيّدًا أنّك لست كذلك.

كان من النادر بالنّسبة إليّ أن أدير محادثة مرهقة على هذا النحو، إذ أنّ تلك الفتاة لديها قدرة على أن تنزلق من بين أصابعك مثل سمكة

«أنقليس». فتارة، تشعرُ بأنّك ستصلُ معها إلى ما تريد وطورًا، تتمرّدُ عليك على نحوٍ مباغتٍ، عند أقلّ احتكاك. وعلى الرّغمِ من سلوكها ذاك، وطّنتُ العزم على ألاّ أستسلم، فقلتُ:

- فيم أختلفُ عن الآخرين؟

- لا أعرف. أنت قويّ البنية، ولكن ثمّة شيء آخر. صوتك، مثلاً.

- وبعد؟

- ليس صوتًا عاديًّا.

ضحكتُ من أعماق قلبي مجدّدًا، لكنّها أردفت بإصرار:

- لا، أعني ما قلتُ، فصوتك عميق... زد على ذلك أنّه... لا أعرفُ كيف أصفُ ذلك... إنّهُ صاف وثابت.

- ذلك يحدثُ عندما يكونُ المرء معتادًا على عزف الغيتار والغناء.

- لا، ليس ذلك. لم أسمع مغنين أو عازفي غيتار يغنون مثلك. ولكن سبق أن سمعتُ أصوات تذكّرني بصوتك. نعم، تذكّرت، هنالك... في «هايتي». صوتك يذكّرني بأصوات الزنوج.

- حسنًا، هذا إطراء منك، فأولئك الزنوج هم أفضل موسيقيين يمكن أن تلتقيهم.

- لا تتفوّه بالحماقات.

أردفت مؤكّدًا:

- لا، ليست حماقات. فهم أصل كلّ الموسيقى الأمريكية.

- لا أظنّ ذلك، لا سيّما أنّ جميع فرق الرقص العظيمة مكوّنة من البيض.

قلتُ ساخرًا:

- أنت محقّة، فالبيض هم في وضع أفضل لاستغلال كلّ اكتشافات السود.

- أمّا أنا فلا أعتقدُ أنّك على حقّ، فكلّ المؤلّفين الموسيقيين العظام هم من البيض.

- ديوك إلينغتون[1]، على سبيل المثال.

- لا، بل غيرشوين وكارن[2]، وغيرهم من العظماء.

- لا تنسي أنّهم جميعًا مهاجرون أوروبيّون، وبالتأكيد، هم أفضلُ من استغلّ ما أنتجه السود. لا أظنُّ انّ المرء سيقعُ مثلاً على لحنٍ أصيل في أعمال غيرشوين، لحن لم ينسخهُ أو ينتحلهُ أو يعد صياغته. أنا أتحدّاك ألاّ تقعي على لحنٍ مسروقٍ في عمله «راسبوديا بالأزرق»، على سبيل المثال.

---

(1) ديوك إدوارد كينيدي إلينغتون (1899-1974) ملحنّ ومغني جاز وقائد فرقة أمريكي.

(2) جورج غيرشوين (1898 - 1937) مؤلف موسيقي أمريكي من أشهر أعماله «راسبوديا بالأزرق» Rhaspody In Blue

- أنت غريب الأطوار حقّا. زد على ذلك، أنا أكرهُ السود.

لقد أصابت جملتها الأخيرة الهدفَ تمامًا، ورحتُ أفكّر في أخي «توم» حتّى كدتُ أن أشكر الربّ على ما تفوّهت بهِ، بل إنّ ما حال بيني وبين الغضب في تلك اللحظة، هو رغبتي الشديدة في مضاجعة تلك الصبيّة، وبصراحة، لم أكن محتاجًا إلى المساعدة الإلهيّة كي أنهي ما خطّطتُ لهُ، على أكمل وجه. لذا استأنفتُ حديثي قائلاً:

- أنت لا تختلفين عن البقيّة، فأنت تحبين التباهي بما سبق أن اكتشفه غيركم.

- ما الذي تعنيه؟

- عليك أن تسافري يا «لو». هل تعلمين أنّ الأمريكيين البيض لم يخترعوا السينما بمفردهم ولا حتّى السيارات أو جوارب النايلون أو سباقات الخيول أو موسيقى «الجاز».

- دعنا ننتقل إلى موضوعٍ آخر، فمن الواضح أنّك تقرأ الكثير من الكتب وهذا كلّ ما في الأمر.

وفيما تابع البقيّة لعب «البريدج» فوق الطاولة المحاذية، حدّثتُ نفسي بأنّي لن أصل إلى شيء مع تلك الفتاة إذا لم أدفعها إلى الشّربِ، وأنّه يتعيّن عليّ أن أثابر، لذا استطردتُ قائلاً:

- لقد أخبرني «ديكس» عن شراب «الروم» الذي تشتهرُ به عائلة «آسكيث». هل ما ذكره لي يعدُّ أسطورة أم في مقدور أيّ من الفانين مثلي تناول البعض منه؟

- بالتأكيد، يمكنك تناول «الرّوم». كان عليّ أن أخمّن أنك عطشان.

أفلتّها حينئذٍ، فهرعت نحو ما يشبهُ المشربَ، كان موجودًا في غرفة الجلوس.

- هل تريدُ مزيجًا من «الروم» الأحمر والأبيض؟

- حسنًا، أريدهُ ممزوجًا. سيكونُ أفضل لو أضفت القليل من عصير البرتقال، فأنا أكادُ أموت من العطش.

- هذا أمرٌ سهل!

في الأثناء، تعالى صراخ لاعبي البريدج المتحلّقين حول الطاولة، في الطرف الآخر من الغرفة، قائلين:

- هيّا يا «لو» أعدّي المشروب للجميع...

- حسنًا، ولكن عليكم أن تأتوا إلى هنا وتأخذوا كؤوسكم.

كم تثيرني تلك الفتاةُ حين تميلُ إلى الأمام. لقد كانت ترتدي بلوزة ضيّقة بفتحة صدر مستديرة تكشفُ جزءًا من نهديها، أمّا شعرها فتركتهُ منسدلاً على جانبٍ واحدٍ -تماما مثلما رأيتها في المّرة الأولى- ولكن هذه المرّة على الجانب الأيسر. وعلى الرّغمِ من مكياجها الخفيف، إلاّ أنّها بدت رائعة إلى حدٍّ شعرتُ برغبةٍ في التهامها، ما دفعني إلى القول:

- حقّا، أنت فتاة جميلة.

اعتدلت في وقفتها وهي تمسكُ زجاجة «الروم» في يدها، ثمّ قالت:

- رجاءً لا تبدأ ذلك ثانية.

- أنا لا أبدأ بل أواصلُ ما بدأته.

- حسنًا، لا تواصل، فأنت تبدو لي متسرّعًا، وهذا يفسدُ المتعة.

- إنّ أمورًا كهذهِ، لا يجب أن تستغرقَ الكثير من الوقت.

- بلى. كلّ الأشياء الممتعة يجب أن تدومَ طويلاً.

- هل تعرفين حقّا ما تعنيه «الأشياء الممتعة»؟

- نعم، كالحديث معك مثلاً.

- إنّها متعتك أنت، وهو ما أراهُ أنانيّة منك.

- وأنا أراك رجلاً فظّا. قل لي، هل تعني أنّ الحديث معي مملٌّ؟

قلتُ ساخرًا:

- لا أستطيعُ أن أنظر إليك دون أن أحدّث نفسي بأنّك ما خلقتِ قطّ للحديث، بل من أجل شيء آخر، مثلما يصعبُ عليّ أن أتحدّث معك دون أن أنظر إليك، ولذا أرغبُ في مواصلة الحديث معك لئلاّ أضطرّ إلى لعب «البريدج».

- ألا تحبّ «البريدج»؟

ثمّ ملأت كأسي وقدّمتها لي، فأخذتها منها وشربتُ نصفها. قبل أن أقول مشيرا إلى كأسي:

- أحبُّ هذا.

ثمّ أضفت:

- كما أحبُّ حقيقة أنّك من أعدّها لي.

احمرَّ وجهها خجلاً.

- تبدو لطيفا حقّا عندما تتصرّف على هذا النّحو.

- أؤكد لك أنّه بإمكاني أن أكون لطيفًا بطرق شتّى.

- ما قلتهُ لا ينفي أنّك مدّعٍ. صحيحٌ أنك تمتلكُ بنية قويّة ولكن يخّيل إليك أنّ ذلك هو كلّ ما ترغبُ فيه النساءِ.

- ماذا تقصدين؟

- الأمورُ الحسيّة.

قلتُ واثقًا:

- إنّ النّساء اللائي لا يرغبن في الجسد، هنّ أولئك اللائي لم يسبق لهنّ أن جرّبنَ لذّتهُ.

- هذا ليس صحيحًا.

- هل سبق لك أن جرّبتِ لذّة الجسد؟

لم تجبني بل لوت أصابعها، بعد ذلك استجمعت شجاعتها وقالت:

- ما فعلته بي، في المرّة السابقة...

- وبعد؟

- لم يكن لطيفًا.... لقد...لقد كان الأمرُ فظيعًا!

- ولكنّهُ لم يزعجكِ، أليس كذلك؟

- لا، ردّت بصوتٍ خافت.

لم ألحّ عليها أكثر واكتفيتُ بإنهاء كأسي، خصوصًا بعدما نجحتُ في استرجاعِ ما كنتُ خسرتهُ من حظوةٍ لدى تلك الصبيّة. يا إلهي، إنّي أعرفُ أنّه تنتظرني أوقاتٌ عصيبةٌ معها، هي التي تذكرّني طباعها المنفلتة، بأسماكِ السّلمونِ المرقّطِ.

في الأثناء، نهضت «جين» من مكانها وقدمت لتأخذ كؤوس الشّراب، لكنّها قالت لي حين لاحظت صمتنا:

- هل تجدُ «لو» مملّةً يا «أندرسن»؟

فأجابتها «لو» حانقة:

- هذا لطف منك.

انتهزتُ الفرصة كي أقول:

- «لو» تبدو ساحرة حقًّا، وأنا أحبّها كثيرًا. ترى هل أحظى بشرفِ طلب يدها منك؟

فردّت «جين»:

- لن أقبل بذلك مطلقًا، لأنّني أوّلُ من تعرّفتَ إليها.

لكنّ «لو» تساءلت بانزعاج:

- إذن، ماذا أفعلُ هنا بينكما؟ هل أبدو لكما فتاةً مشرّدة؟

فأجابتها «جين»:

- ما تزالين صغيرة يا «لو»، زد على ذلك، ما تزالُ الحياةُ أمامك أمّا أنا...

لقد أضحكتني إجابةُ «جين»، فهي في حقيقة الأمر، تكبرُ أختها بسنتين فحسب، ولكنّ ضحكي أثار حنق «لو» التي قالت:

- لا تضحك مثل الأبله يا «اندرسن». ألا ترى كيف تبدو عجوزًا ذابلة؟

الحقُّ أقولُ، كم أعشقُ تينك الفتاتين، لاسيّما وهما تبدوان لي جدُّ متفاهمتين، لذا أجبتها قائلاً:

- إذا لم تصبحي أقبحَ من أختك حينَ تكبرين، فسيسعدني حقًّا أن أتزوّجكما أنتما الاثنتان.

فرّدت «جين»:

- أنت فظيع يا «اندرسن». سأعودُ إلى لعب «البريدج» مع الجماعة. ألا تودُّ أن ترقص معي بعد انتهاء اللّعبة؟

لكنّ «لو» أجابتها قائلة:

- أوه، لن يحدث هذا يا «جين»، فهذه المرّة، أنا من جئتُ أوّلاً. هيّا اذهبي والعبي بأوراق «البريدج» القديمة والقذرة.

عدنا أنا و«لو» إلى الرقص مجدّدًا، ولكن سرعان ما غيّرت المحطة

الاذاعيّة برنامجها الموسيقيّ ببرنامجٍ آخر، فاقترحتُ على «لو» أن نقوم بجولة خارج المنزل.

- لا أعتقدُ حقّا أنّي أرغبُ في البقاء بمفردي معك.

- لا أريدك أن تقلقي حيال أيّ شيء أو تخافي منّي. فبالنهاية، إذا حدث أمرٌ مّا، فما عليك إلاّ أن تطلقي عقيرتك بالصّراخ.

قالت محتجّة:

- تريدني أن أصرخَ إذن فأبدو خرقاء أمام الأصدقاء.

- حسنًا. ما دمت ترفضين، فسأعدُّ لنفسي كأسًا، لو سمحتِ لي.

ثمّ توجّهتُ نحو المشربِ وأعددتُ لنفسي شرابًا منعشًا، فيما لم تتزحزح «لو» من مكانها. سألتها:

- هل تريدين كأسًا؟

لكنّها رفضت بإشارة من رأسها، وهي تغمضُ عينيها الصفراوين، فقرّرتُ أن أتركها وشأنها وذرعتُ الغرفة كي أتابعَ «جين» وهي تلعبُ «البريدج». وحين وقفتُ قربها، قلتُ لها:

- لقد جئتُ لأجلب لك الحظّ!

استدارت نحوي ببطء، ثمّ قالت وابتسامةٌ مشرقة تعلو محيّاها:

- لقد جئت في الوقت المناسب!

قبل أن تضيف بنبرة ساخرة:

- لقد خسرتُ مائة وثلاثين دولارًا للتوّ. قل لي، هل ترى الأمر مبهجًا؟

- هذا يتوقّفُ على ما تمثّلهُ هذه القطرة التي خسرتها مقارنةً ببحرِ ثروتك.

التفتت «جين» في الحال إلى أصدقائها قائلةً:

- ما رأيكم لو توقفنا عن اللعب؟

لم يبد على أصدقائها الثلاثة الحماسَ لمواصلة اللعب، ونهضوا جميعًا. في الأثناء لم أر «ديكستر» الذي خرجَ برفقة الفتاةِ الأخرى إلى الحديقة، منذ زمنٍ.

قالت «جين» فجأة وهي تشيرُ إلى المذياع بازدراء:

- ألم تجد المحطّةُ ما تبثّه عدا هذا البرنامج؟ حسنًا، سوفَ أعثرُ لكم على برنامجٍ أفضل.

ثمّ شرعت في إدارة مؤشّر المذياع إلى أن نجحت في العثورِ على حفلة موسيقيّة راقصة، حينئذٍ دعا أحد الفتيان «لو» إلى الرقص، وكذا فعل صديقاها الآخرانَ، أمّا أنا فأخذتُ «جين» أوّل الأمرِ إلى المشربِ لنشربَ كأسًا، وبعد ذلك راقصتها، لاسيّما أنّني بتُّ أعرفُ بالضبطِ ما تحتاجهُ تلك الفتاة لكي تكونَ طوع بناني.

(13)

حينَ صعدنا أنا و«ديكس» إلى غرفتينا كي ننام، لم أكن قد عاودتُ الحديثِ إلى «لو» في ما تبقّى من السّهرةِ بعد تلك المحادثة الطّويلة بيننا. تقعُ غرفتانا في الطابق الأوّل من الجناحِ نفسهِ الذي تقيمُ فيه البنتان، بينما استقلّ السيّد والسيدة «آسكيث» بغرفتيهما في جناحٍ آخر. كان بقيّة الضيوف قد عادوا إلى منازلهم. ولئن قلتُ أوّل الأمر إنّ السيد والسيدة «آسكيث» يقيمان في جناحٍ آخر، فذلك لا يعني أنّهما موجودان بالمنزل، فهما غادرا في اليومِ نفسهِ إلى «نيويورك» أو «هايتي» أو لا أعرفُ أين. غرفتي هي الأولى داخل الجناح، تليها، بالترتيب، غرُف «ديكس» و«جين» و«لو»، ما جعلني أدركُ أنّ موقعها قد يحولُ بيني وبين القيام بغاراتي الليّلية على غرفتي الصبيّتينِ.

بعدما دخلتُ إلى غرفتي، خلعتُ ملابسي، وأخذتُ حمّاما مطوّلاً ثمّ جفّفتُ نفسي بعناية مستخدمًا منشفة. بعد ذلك، سمعتُ صوت خطوات «ديكستر» وهو يتحرّكُ داخل غرفته، ثمّ يغادرها إلى الطّابقِ السفليّ، قبل أن يعودُ إليها بعد خمس دقائق تقريبًا، لأسمع حينئذٍ صوت كأسٍ تُملأ. لا ريبَ أنّه قام برحلة صغيرة إلى الطابق الأرضيّ

بحثًا عن الشراب وخمّنتُ أنها ليست فكرة سيّئة على الإطلاق، ومن ثمّ طرقتُ الباب الفاصل بين حمّام غرفتي وغرفتهِ بلطف، فقدم على الفور. عندئذٍ قلتُ لهُ من وراء البابِ:

- قل لي، يا «ديكس»! هل أنا أحلم أم هو صوتُ قرع القواريرِ ما سمعتهُ؟

فردّ قائلاً:

- سأعطيك واحدة يا «اندرسن»، لقد جلبتُ اثنتين.

وإذّاك فتح الباب وقدّم لي قارورةً من شراب «الرّوم»، شراب أعرفُ ألاّ نظيرَ لهُ في مساعدة أيّ كانٍ على النوم أو البقاء مستيقظا، بِحسَبِ حالته المزاجيّة، ولئن كنتُ أخطّط مسبقًا للبقاء مستيقظًا، تفاجأتُ حين تناهي إليّ وقعُ أقدام «ديكس» وهو يذهبُ إلى فراشهِ، بعد فترة وجيزة. حينها أدركتُ أنّ تأثير المشروب فيه، مختلفٌ عن تأثيرِه فيّ.

بعد ذلك، لبثتُ منتظرًا داخل غرفتي نصف ساعة ثمّ غادرتُها بهدوء، ولا شيء أرتديهِ سوى سروالي الداخليّ وسترة المنامة، فأنا لا أحتملُ ارتداء سراويل المنامات بل وأشعرُ حينما أرتديها كأنّي سأفقدُ عقلي. لقد كنتُ أعرفُ إلى أين أمضي بالضبّط، رغمَ الظّلمة التي غرِقَ فيها الرّواقُ، وتقدّمتُ داخله بلا حذرٍ، خصوصًا أنّ متانة السّجاجيدِ بدت كافيةً لكتمِ أيّ صوتٍ حتّى ولو كانت أصواتَ مشجّعينَ يحضرون مباراة «بيسبول»، إلى أن وصلتُ غرفة «لو» فطرقتُ الباب بهدوء. إذّاكَ سمعتُها تقتربُ أو بالأحرى شعرتُ

أنّها تقتربُ، قبل أن أسمع صوتَ مفتاح غرفتها وهو يدور داخل القفل. وما إن فتحتْ الباب الصّقيلَ حتّى دلفتُ الغرفة وأغلقتهُ ورائي بخفّة. وعندما رأيتُ الغلالة البيضاء الفاتنة التي ترتديها خمّنتُ ساخرًا أنّها سرقتها، دون شكٍّ، من أحد متاجرِ «فارغا غيرل»، كما بدا لي واضحًا أنّها ترتدي تحتها حمّالة صدر وسروالا داخليّا من الدانتيل. بادرتها بالحديثِ قائلاً:

- لقد جئتُ لأرى إن كنت ما تزالين غاضبة منّي.

- لا يمكنك البقاء هنا، قالت محتجّة.

- لماذا فتحت لي الباب إذن؟ من كنت تظنين أنه سيطرق بابك؟

- أنا لا أعرف...فكّرتُ أنّها «سوزي»...

- «سوزي» نائمة، وبقية الخدم كذلك. أنت تعرفين ذلك جيّدًا.

- قل لي ماذا تريد؟

- هذا.

ضممتها بين ذراعيّ في تلك اللّحظةِ، وقبّلتها بكلّ ما أوتيتُ من قوة، متغافلاً عمّا تفعلُ يدي اليسرى في الأثناء، لكنّ «لو» قاومتني بشدّة حتّى إنّي تلقيّتُ لكمة رائعة منها على أذني لم يحدثُ أن تلقيّتُ مثلها طوال حياتي، عندئذٍ أفلتها، وهي تردّدُ على مسامعي:

- أنت همجّي!

رحتُ أتأمّلُ تسريحة شعرها العاديّة والنّاعمة، مع ذلك المفرقِ

في وسطهِ. لقد بدت لي لذيذةً لا تقاومُ، إلاّ أنّي حافظتُ على هدوئي، والفضلُ في ذلك يعودُ إلى كؤوس «الروم» التي شربتها. ثمّ قلتُ لها:

- أنت تحدثين جلبة كبيرة. ستسمعك «جين» حتمًا.

- لن تسمع شيئًا، فالحمّام يفصلُ بين غرفتينا.

- هذا أمرٌ رائع.

عندئذٍ، أعدتُ الكرّة وفتحتُ غلالتها، وتمكنّتُ من انتزاعِ سروالها الداخليّ، وكي أتفادى لكمةً أخرى، قبضتُ على معصمها، ثمّ ثبّتتُ يديها خلف ظهرها حتّى إنّهما استقرّتا بسهولة داخل راحة يدي اليمنى. ومع ذلك، قاومتني دون أن تحدث صوتًا، وقد بدا عليها الغضبُ، وحاولت أن تضربني بركبتها، ولكنّي دفعتُ يدي اليسرى وراء ظهرها وأجبرتها على البقاء ملتصقة بي، فحاولت أن تعضنّي عبر سترة المنامة. لقد بدا لي أنّ السيّطرةَ عليها تحتاجُ يدًا إضافيّة. بعد ذلك، شعرتُ بفرجها، ذي الشعر المجعّد، يحتكُّ بفخذي، حينئذٍ رفعتُها قليلاً عن الأرض، لكنّي فشلتُ في خلعِ سروالي الداخليّ، فأفلتها على نحوٍ مباغتٍ ودفعتها ناحية السرير، قائلاً:

- حسنًا. لقد أنفقتِ الكثيرَ من الجهدِ لمقاومتي، ولكنّي سأكونُ مغفّلاً حقّا لو تعرّيتُ من أجل جسدٍ تافهٍ كجسدك.

بدا لي أنّها ستبكي، ولكنّ ما كان في عينيها هو بريقُ الغضب حتّى إنها لم تحاول ارتداءَ ملابسها. لقد اختلجت عيناي، ورحتُ أتأمّلُ مفاتنها لاسيّما شعر عانتها الأسود، الكثيف واللاّمعِ كصوفِ

خرافِ الأستراخان، ثمَّ درتُ على عقبيّ وتوجهتُ نحو الباب، قائلاً بسخرية:

- نامي جيّدًا وأرجو أن تغفري لي الضرر الخفيف الذي ألحقته بملابسك الداخليّة. في الواقع، لا أجرؤ أن أعرض عليك شراء أخرى جديدة، ولكنّي أراهنُ أنّك سترسلين لي الفاتورة.

وإذ كانَ يشقُّ عليّ أن أظهر فظاظتي معها، على ذلك النّحو، فإنّهُ عليّ أن أعترفَ أنّ الموهبة لم تكن تعوزني. صحيحٌ أنّها لم تنبس ببنتِ شفة، ولكنّي رأيتها كيفَ تعتصرُ قبضتيها وتعضُّ على شفتيها من الغيظ. ثمّ أدارت لي ظهرها فجأةً، ورحتُ أتأمّلها لبعض الوقتِ وهي تأخذُ تلك الوضعيّة، ما جعلني أشعرُ بالأسفِ حقًّا على ضياعِ فرصة مضاجعتها. بعد ذلك، غادرتُ غرفتها وقد اجتاحتني حالة من الابتهاج، ثمّ فتحتُ باب الغرفة التّالية، غرفةُ «جين». لقد اكتشفتُ أنّها لم تغلق الباب بالمفتاح، حينئذٍ توّجهتُ نحو الحمّامَ وأدرتُ مزلاج الباب الفاصلِ بينه وغرفة «لو» ثمّ خلعتُ سترة المنامة وسروالي الداخلّي. لقد كانت غرفتها مضاءة بنورٍ خفيفٍ، وساهمت الستائرُ البرتقاليّة في تلطيف الجوّ أكثر. ثمّ رأيتُ «جين» مستلقيةً على بطنها، وعاريةً تمامًا، فوق سريرها الواطئ وهي بصددِ طلاءِ أظفارها. أدارت رأسها في اتجاهي عندما رأتني أدخل بينما راحت عيناها تتابعاني وأنا أغلق الأبواب. ثمّ ما لبثت أن قالت لي:

- أنت جريء حقّا.

- أعرفُ ذلك مثلما أعرفُ أنّك كنتِ تنتظرينني.

ما إن قلتُ ذلك حتّى ضحكتْ وانقلبت على ظهرها فوق السرّير، حينئذٍ جلستُ قريبًا منها وشرعتُ في مداعبةِ فخذيها. لقد بدا لي أنّها لم تكن تشعرُ بالخجل وكأنّها طفلة في العاشرة من عمرها. ثمّ استوت في جلستها وأخذت تتلمّسُ عضلات ذراعيّ، قائلةً:

- أنت قوّي يا «أندرسون».

- بل ضعيفٌ مثل حمل ولد للتوّ.

ثمّ أخذت تحتكّ بي وتقبّلني قبل أن تتراجعَ فجأة إلى الوراءِ وهي تمسحُ شفتيها:

- لقد جئتَ من عندِ «لو»، إنيّ أشمّ رائحة عطرها عليك.

لم يخطر لي البتّة أنّ عطر «لو» اللعينَ سيشي بي. لقد بدا لي صوتُ «جين» مرتجفا وهي تديرُ عينيها بعيدًا عنّي، فقلتُ لها:

- أنتِ تتصرّفينَ بحماقة.

- إنيّ أشم رائحة عطرها عليك.

- لقد كنتُ عندها.

- ألم أقل لك؟

- ولكنّي ذهبتُ إلى غرفتها لكي أعتذرَ منها، بعد أن أغضبتها أثناء السّهرة.

في تلك اللّحظة، خطر لي أنّ «لو» ربّما ما تزالُ واقفة وسط

غرفتِها، شبه عارية، ما استثارني أكثر، حتّى لاحظت «جين» انتصاب عضوي واحمرَ وجهها خجلاً، فسألتها مشيرًا إلى عضوي:

- هل يزعجك هذا؟

ردّت بخفوت:

- لا. هل يمكنني أن ألمسك؟

استلقيتُ إلى جانبها، ودفعتها إلى الاستلقاءِ أيضًا، لتشرعَ يداها في تحسّسِ جسدي بخجل، وتقول بصوتٍ خفيض:

- أنت قويّ جدًا.

كنّا في تلك اللّحظةِ، مستلقييْنِ على جانبٍ واحد، في مواجهة بعضنا البعض، فدفعتها برفقٍ وأدرتها على الجانب الآخر، ثمّ اقتربتُ منها، إذّاكَ باعدت ما بين ساقيها بتمهّلٍ كي تفتح لي الطريق، وهي تقولُ:

- سوف تؤلمني.

- بالتأكيد لن أفعل.

اكتفيتُ بتمرير اصابعي فوق نهديها، صعودًا من الأسفل حتّى حلمتيها، حتّى شعرتُ باختلاجتهَا بين ذراعيّ، فيما انحشرت مؤخرتها الممتلئة والدافئة بين فخذي، وتسارعت أنفاسها.

سألتها قائلاً:

- هل تريدين منيّ أن أطفئ النور؟

- لا، هكذا أفضل.

حينئذٍ، سحبتُ يدي اليسرى من تحت جسدها وأبعدتُ خصلات شعرها عن أذنها اليمنى. أعرفُ أنّ ثمّة الكثير من الرّجال يجهلونَ ماذا يحدثُ للمرأة حين يقبّلُ أحدهم أذنها ويعضّها، على الرغم من أنّها حيلةٌ معروفة. وما إن اختبرتُ تلك الحيلة على «جين» حتّى تلوّت مثل سمكة أنقليس، وهي تقول مبهورة الأنفاسِ:

- أرجوك، لا تفعل بي هذا!

توقفتُ في الحالِ، لكنّها أمسكت معصمي وعاودت احتضاني بقوّة قائلة:

- افعل ذلك ثانية.

أعدتُ الكرّة بإسهابٍ هذه المرّة، إلى أن شعرتُ بها تتصلّبُ بين ذراعيّ فجأة ثمّ تسترخي وتتركُ رأسها يسقطُ على الوسادة، عندئذٍ تركتُ يدي تنزلقُ على بطنها وقد حدستُ أنّها استثيرتْ، وشرعتُ أقبّلُ رقبتها قبلات سريعة وخاطفة حتّى عاينتُ كيف اشتدّ جلدها وأنا أقتربُ من نحرها. في تلك اللّحظةِ، أمسكتُ أيري برفقٍ وأولجتهُ فيها بسهولة شديدة إلى حدِّ التبسَ فيه الأمرُ عليّ، فلم أعرف إن كانت أحسّت بذلك أم لا، ثمّ شرعتُ في مباشرتها. كنتُ أعرفُ أنّ نجاحَ المعاشرةِ يتوقفُّ على مدى تهيئةِ النّساءِ نفسيًّا لذلك. لكنّها تحرّرت منّي فجأة بدفعة خفيفة من خصرها. فسألتها:

- هل آلمتك؟

- لا، ولكن أريدك أن تداعبني. داعبني اللّيلَ كلّهُ.

- هذا ما سأفعلهُ بالتأكيد.

ثمّ باشرتها مجدّدا، ولكن بعنفٍ هذه المرّة، لكنّي سحبتُ أيري قبل أن تصل إلى نشوتها، فهمست قائلة:

- أنت ستصيبني بالجنون.

واستدارت على بطنها وهي تخفي رأسها بين ذراعيها، فقبّلتُ ظهرها وعجيزتها ثمّ ركعتُ على ركبتيّ فوقها، قائلاً:

- افتحي ساقيك.

باعدتْ ما بين ساقيها بصمتٍ، فتركتُ يدي تنزلق بين فخذيها وأرشدتُ أيري إلى شيئها لكنّي أخطأتُ الطريق، وعادَ جسدها إلى تصلّبهِ، إلا أنّي أصررتُ على مباشرتها من الخلف. لقد بدت منزعجة وهي تجيبُ:

- لا أريدُ ذلك.

أمرتها قائلاً:

- انحنِ على ركبتيك.

- لا أريدُ ذلك.

ولكنّها أذعنت في النّهاية، وأحنت ظهرها إلى الامام، رافعةً ركبتيها، ومبقيةً رأسها مدفونًا بين ذراعيها، حتّى تمكّنتُ برفقٍ من الوصولِ إلى غايتي، وعلى الرغمِ من أنّها لم تنبس ببنتِ شفةٍ وأنا أفعلُ

ذلك، إلاّ أنّي شعرتُ ببطنها تهتزُّ تحتي، صعودًا وهبوطا، وبأنفاسها تتسارعُ. وبعد أن فرغتُ، سقطتُ على جانبي جارًّا إيّاها معي، دونَ أن أخرج عضوي منها، ولكن حينما حاولتُ أن أتأمّلَ وجهها، رأيتُ الدموع تنثالُ من عينيها المغمضتينِ، قبل أن تطلب منّي تركَ عضوي داخلها.

(14)

عدتُ إلى غرفتي على السّاعةِ الخامسة صباحًا، بعد أن تركتُ «جين» نائمةً، وقد أنهكها التّعبُ. وحينَ أفقتُ، شعرتُ بشيء من الوهنِ في ركبتّي لكنّي تمكنتُ من مغادرة سريري حوالي العاشرة صباحًا، وقد حدستُ أنّ شراب «الروم» الذي قدّمهُ لي «ديكس» ليلةَ أمسٍ ساعدني كثيرًا. ذهبتُ إلى غرفةِ الحمّام ووقفتُ تحت صنبور المياه البارد ورجوتهُ أن يُلاكمني قليلاً، وفعلاً أخذَ الماء يضربني مثل بغلٍ، ما جعلني أشعرُ بالتحسّن. في الأثناءِ، فكّرتُ في الحالة التي ستكونُ عليها «جين» حينَ أراها، أمّا «ديكس»، فلقد حدستُ أنّهُ قد عبّ الكثير من «الروم» بالأمسِ حتّى إنّه كان باستطاعتي أن أشمّ رائحة أنفاسه الكريهة على بعد مترين، لمّا التقيتهُ، فنصحتهُ بأن يشرب ثلاثة ليترات من الحليب[1] ويقوم بجولة في ملعب الغولف. لقد كان يعتقدُ أنّه سيعثر على «جين» في ملعب التنس، ولكنّها لم تكن قد أفاقت بعد. بعد ذلك، نزلتُ لتناول الإفطار، ورأيتُ «لو» تجلسُ على الطاولة وحيدةً، مرتديةً تنورة قصيرة، ذات طيّات، ومريلة حريريّة

(1) في النسخة الإنجليزية: نصحتهُ أن يشرب الكثير من عصير الطماطم.

شفافة تحت سترة مصنوعة من جلد الغزال. الحقُّ أنّي كنتُ أشتهي تلك الفتاة، ولكن بعد ما حدث ليلة أمس، صرتُ أشعرُ بالفتور حيالها. ومع ذلك ألقيتُ عليها تحيّة الصباح فردّت:

- صباح الخير.

بدت لي نبرتها باردة، أو ربّما حزينة، لذا سألتها:

- هل أنت غاضبة منّي؟ إنّي أعتذرُ عمّا بدر منّي ليلة أمس.

- أظنّكَ غير قادرٍ على فعلِ أيّ شيء حيال ذلك، فأنتَ ولدتَ بهذا السّلوكِ.

- لا، بل صرتُ كذلك.

- لا تعنيني حكاياتك.

- أنتِ أصغرُ من أن تهتمّي بحكاياتي.

- سأجعلك تندم على ما قلتهُ لي للتوّ يا «لي».

- أنا متشوّقٌ لرؤية ذلك اليوم.

- دعنا لا نتحدّث عن ذلك. أتودُّ أن تلعبَ شوطا معي؟

- سيسرّني ذلك، فأنا أحتاجُ إلى بعض الترفيه.

ابتسمت رغمًا عنها ثمّ تبعتها إلى ملعب التّنس. ما إن انتهينا من طعام الإفطار، وقد حدستُ أنّ تلك الصبيّة لا تستطيع أن تبقى غاضبةً لفترة طويلة.

لقد لعبنا التنس حتّى الظهيرة، ما جعلني أفقدُ إحساسي بساقيّ

وأشعرُ بغلالة تبدأ في حجبِ الرؤيةِ عنّي، ثمّ جاءت «جين» وبعدها «ديكس»، كلّ منهما من اتّجاه. وحينَ وقع بصري على جين، قلتُ لها ساخرًا:

- مرحبا يا «جين»، إنّك تبدين في حالٍ جيّدة.

- أُنظر إلى حالك أوّلا!

أجبتها مؤكّدًا:

- إنّه خطأ «لو»!

لكنّ «لو» اعترضت باستهجانٍ:

- هل هو خطئي أيضًا أن يبدو العجوز «ديكس» في مثل هذه الحالة المزرية؟ لقد شربتما الكثير من «الروم» وهذا ما حصلتما عليه. أوه، يا «ديكس»، إنّي أشمّ رائحة أنفاسك على بعد أربعة أمتار.

احتّج «ديكس» بقوّة:

- «لي» قال إنّه يشمها على بعد مترين!

- هل قلتُ لك ذلك حقّا؟

لم يجبني «ديكس» وإنّما توّجه بالحديث إلى «لو»:

- «لو»، تعالي نلعبُ شوطًا معا.

فردّت عليه قائلة:

- هذا ليس عدلاً. يفترضُ بك أن تلعب مع «جين».

رفعت «جين» صوتها قائلة:

- هذا مستحيل! تعال يا «لي»، هيّا خذني في جولة بالسيّارة قبل أن يحين الغداء.

تساءل «ديكس» محتجّا:

- ولكن متى تتناولون طعام الإفطار في هذا المنزل؟

- ليس هنالك ساعة محدّدة لذلك.

أجابتهُ «جين» قبل أن تشبك ذراعها في ذراعي وتجرّني ناحية المرآب. حين وصلنا، سألتها:

- هل نأخذ سيّارة «ديكس»؟ فهيَ أقربُ واحدة إلى باب المرآبِ وسيكون من السهل الوصول إليها.

لم تجبني بل اعتصرت ذراعي بقوّة واقتربت منّي حتّى كادت أن تلتصق بي، فاضطررتُ إلى الحديث في مواضيعَ لا معنى لها لكنّها ظلّت صامتة، ثمّ أفلتتْ ذراعي كي تصعد إلى السيّارة، وما إن جلستُ خلف المقود، حتّى عادت إلى الالتصاق بي مجدّدًا، إلى حدٍّ جعلها شديدة القربِ منّي ولكن دون أن تعيقني عن القيادة. إثر ذلك، تراجعتُ بالسيّارة إلى الخلفِ وقدتها على الممرّ المفضي إلى البّوابةِ المفتوحةِ، ثمّ انحرفتُ إلى اليمين، غير عارفٍ إلى أيّ وجهةٍ سيأخذنا ذلك الإتّجاه، ما دفعني إلى سؤال «جين»:

- قولي لي، كيف نخرجُ من هذه المدينة؟

فقالت بصوتٍ هامسٍ:

- اختر الطريق التي تناسبك...

نظرتُ إليها في المرآة الخلفيّة، فاكتشفتُ أنّ عينيها مغمضتان. لم يرقني صمتها فألححتُ عليها قائلاً:

- يا إلهي! لا ريبَ أنّك نمتِ كثيرًا وهذا ما جعلك مملّة للغاية.

اعتدلت في مكانها كما لو أنّها أصيبت بمسّ من الجنون وأمسكتْ رأسي بيديها محاولة تقبيلي، فضغطتُ على مكابحِ السيّارة بحذرٍ لأنّ ما فعلتهُ حال دوني ورؤية الطريق. ولكنّها ألحّت قائلة:

- قبّلني يا «لي».

- انتظري حتّى نخرج من المدينة على الأقلّ.

- أوه، أنا لا أهتمّ بما سيقولهُ النّاس عنّي، بل ولا أهتمّ إن علم جميعهم بما بيننا.

- ماذا عن سمعتك؟

- لا تهتمّ لأمرها. قبّلني فحسب.

في الواقع، لا يزعجني أن أقبّلها لمدة خمس دقائق، ولكنّي لا أشعرُ بالرغبةِ في فعل ذلك كلّ الوقتَ، إذ أنّني أوافقُ على أن أنامَ معها وأقبّلها في جميعِ أنحاءِ جسدها، ولكن أن أكتفي بتقبيلها فحسب، فهذا ما لا يمكنني أن أوافق عليهِ، لذا حرّرتُ نفسي منها وأنا أقولُ:

- كوني عاقلة!

- قبّلني يا «لي»، أرجوك.

أمام إصرارها، ضغطتُ على دوّاسة السرعة مرّة أخرى وانحرفتُ داخل أوّل شارعٍ على يميني، ثمّ انحرفتُ يسارًا، في مسعى لجعلها ترتجُّ بما يكفي كي تتركني وشأني وتتشبّث بأيّ شيء آخر، ولكنّ الأمر لم ينجح مع سيارة «الباكارد» تلك، إذ كانت تجري بنا دون أن ترتجّ، بل إنّها انتهزت تلك الفرصة لتضع ذراعها حول رقبتي مجدّدًا، حينئذٍ قلتُ لها:

- لكنّ الناسَ سيتقوّلون عليك.

- أتمنى أن يفعلوا ذلك، لأنّهم سيصابون بخيبة أملٍ فيما بعد.

- فيما بعد؟ متى؟

- عندما يعرفون أننا سنتزوّج.

اللّعنة، تلك الفتاة سرحت في أوهامها حقّا، وذكّرتني بأولئك النسوةِ اللاّئي يتشبّثنَ بفكرة الزواج مثلما يتشبّث قطّ بزهرة نعناع أو ثعلبٌ بضفدعٍ ميّت، فكرةٌ يتمسّكن بها طوال حياتهنّ. سألتها قائلاً:

- هل سنتزوّجُ حقّا؟

طأطأت رأسها وقبّلت يدي قائلة:

- بالتأكيد.

- متى؟

- الآن.

- لا، ليس يوم أحد.

- لماذا؟.

- لا، سيكونُ ذلك سخيفًا ثمّ إنّ والديكِ لن يوافقا.

- هذا لا يهمّني.

- لا أملكُ مالاً.

- ما لديك يكفينا نحن الاثنين.

- إنّهُ لا يكاد يكفيني أنا.

- سيعطينا أبي القليل من المال.

- لا أظنّ ذلك، فوالداك لا يعرفانني. وزد على ذلك، أنتِ أيضا لا تعرفينني.

احمرَّ وجهها خجلاً ثمّ دفنت رأسها في كتفي وهي تقولُ بصوتٍ هامسٍ:

- بلى، أنا أعرفك، بل وأستطيعُ أن أصفَ لك كلّ بقعة في جسدك مغمضةَ العينين.

انتهزتُ تلك الفرصة لأعرف إلى أيّ حدّ هي مولعة بي، فقلتُ:

- كثيرات هنّ النساء اللائي في مقدورهنّ أن يصفنني بالطريقةِ نفسها.

لم تبدُ عليها الصدمة بعد جملتي الأخيرة، بل قالت ببساطة:

- هذا لا يهمّني، إذ أنّهنّ لن يفعلن ذلك بعد الآن.

- ولكنّك لا تعرفين أيّ شيء عنّي.

- أنا لا أعرفُ أيّ شيء عنك[1].

ثم شرعت تدندنُ أغنية «ديوك» التي تحملُ هذا العنوان. فأردفت قائلاً:

- لاحظي أنّك تجهلينَ عنّي كلّ شيء، لاسيّما الآن.

توقّفت عن الدندنة، وقالت:

- إذن، احكِ لي !

- حسنًا، أنا لا أرى كيف يمكنني أن أمنعك من الزواج بي، إلاّ في حالة واحدة، وهي أن أرحلَ بعيدًا عنكِ. ولكنّي لا أشعرُ برغبة في الرّحيلِ.

تفاديتُ أن أضيفَ: «ليسَ قبل أن أنام مع «لو» أيضًا»، مع أنّ ذلكَ هو ما فكّرتُ فيه في تلك اللّحظةِ، لكنّ «جين» صدّقت ما قلتهُ لها، ما جعلني أتأكّدُ أنّي أحتفظُ بتلك الفتاة داخلَ راحة يدي[2]، وحينها فكّرتُ أنّهُ لم يبقَ لي سوى أن أسرّعَ الأمورَ مع «لو».

وضعت «جين» رأسها على ركبتيّ ومدّدت جسدها الذي احتلّ كامل المقعد، وهي تهمس:

- أرجوكَ يا «لي»، حدثني عنك.

- حسنًا.

---

(1) عنوان أغنية شهيرة لمغني الجاز الأمريكي «ديوك إلينغتون».

(2) تعبير يقصدُ به «السيطرة المطلقة».

أخبرتها أنّي ولدتُ في مكانٍ مّا من نواحي «كاليفورنيا» وأنّ أبي لهُ أصول سويديّة، وهو ما يفسّرُ لون شعري الأشقر. ثمّ حدّثتها عن طفولتي القاسية، بسبب الفقر المدقعِ لوالديّ، ما دفعني في سنّ التّاسعة إلى العملِ كعازفِ غيتار، كي أحصّل لقمة عيشي خصوصًا مع فقر والدّي المدقع، ليحالفني الحظُّ بعدها، حينَ بلغتُ الرّابعة عشرة والتقيتُ بشخصٍ اهتمّ لأمري وحملني معهُ إلى أوروبّا، تحديدًا إلى «بريطانيا» و«إيرلندا»، وهناكَ قضّيتُ عشرة أعوام.

لقد اختلقتُ كلّ تلك القصصِ التي حدّثتها بها، رغم أنّي قضيتُ حقّا عشرة أعوام في أوروبّا ولكن في ظروفٍ أخرى، وكلّ ما اكتسبته من معرفة أدينُ به إلى نفسي وإلى مكتبة الرّجل الذي اشتغلتُ عندهُ خادمًا. لم أحدّثها عن معاملة ذلك الرّجل لي، هو الذي كان يعرفُ أنّي زنجيّ، ولا عمّا يفعلهُ بي عندما يأتي اصدقاؤه لزيارتهِ ولا حتّى عن الطريقة التي غادرتهُ بها، بعد أن أرغمتهُ على توقيع شيكٍ لتمويل رحلة عودتي، مقابلَ بعض الخدمات الشخصية الخاصّة التي قدّمتها له. كما اختلقتُ الكثير من الأكاذيب حول أخي «توم»، وحول الصبيّ، وظروف موتهِ في حادثٍ، قائلاً إنّ الزّنوجَ هم سببُ موتهِ، إذ أنّهم خبيثون ولا يصلحون لشيءٍ سوى للعمل كخدمٍ، لتجيبني هي أنّ فكرة الاقتراب من أولئك «الملونين» تجعلها مريضة.

ثمّ أخبرتها أنّي عندما عدتُ إلى موطني، اكتشفتُ أنّ منزل العائلة قد بيع، وأنّ أخي «توم» رَحل إلى «نيويورك» وأنّ الصبيّ ماتَ ودفن في عمق ستة أقدامٍ تحت الأرض، وبسبب ذلك قرّرتُ أن أبحث عن

عملٍ، مضيفًا أنّني مدينٌ بوظيفتي الحاليّة بصفتي مدير مكتبة إلى أحد أصدقاء «توم». وكانت تلك هي الحقيقةُ الوحيدة التي ذكرتها لها.

كانت تستمعُ إليّ بإجلالٍ وكأنّي واعظٌ، فأضفتُ قائلاً إنّ والديها لن يوافقا على زواجنا لأنها لم تبلغ العشرين. حينها، أخبرتني أنها أتمّت العشرين، زيادة على أنّ قوانين الولاية تبيحُ لها الزّواج في تلك السنّ دون أن تضطرّ إلى طلب موافقة أهلها. ثمّ قلتُ لها إنّي أكسب القليل من المال فأجابت أنّها تفضّل أن أكسب المالَ بجهدي وبشرفٍ، إضافة إلى أنّ والديها سيحبّانني حتمًا وسيجدانِ لي وظيفةً مهمّة في «هايتي» أو في إحدى مزارعهما. في الأثناء، كنتُ أحاولُ أن أحدّد اتجاهي إلى أن تمكنتُ من العثورِ على الطريق التي جئنَا منها، أنا و«ديكس». عندئذٍ، قلتُ لها إنّي سأستأنفُ عملي في الوقت الحاليّ وكلّ ما عليها أن تفعلهُ هو أن تأتي لزيارتي بعد أسبوع. ثمّ اتفقنا على الذّهابِ إلى مكانٍ مّا في الجنوب الغربي وهناكَ سيتسنّى لنا أن نقضي معًا بضعة أيّام دون أن يزعجنا أحدٌ، ومن ثمّ نعودُ زوجًا وزوجة ونضعَ الجميع أمام الأمر الواقع. بعد ذلك، سألتها إن كانت ستخبرُ «لو» بقرارنا، فقالت إنّها ستفعل ولكن لن تكشفَ لها ما فعلناهُ معًا، وما إن ذكرت ذلك حتى تملّكها الشبقُ مجدّدًا. لقد كان من حسن حظّي أنّا بلغنا المنزل في تلك اللّحظة.

(15)

لقد قضينا فترة الظهيرة كما اتفق، لا سيّما أنّ الطقس لم يكن جميلاً كما في اليوم السابق، بل بدا خريفيّا بامتياز. ولقد حرصتُ على ألاّ ألعب «البريدج» مع أصدقاء «جين» و«لو» واضعًا نصب عيني نصائح «ديكس»، خصوصًا أنّي أعرفُ أنّ الوقت ليس مناسبًا كي أبدّدَ مئات الدّولارات القليلة التي نجحتُ في ادخّارها. والحقّ أنّ أولئك الأشخاص لا يبدون اهتماما لخسارة خمسمائة دولار أو ستمائة، فكلّ ما يعنيهم هو قتل الوقت.

في الواقعِ، لم تبعد «جين» نظراتها عنّي طوال الوقت وعندما أتيحت لي فرصة الانفراد بها أخبرتها أن تلزمَ الحذر. في الأثناء، رقصت مع «لو» مرّة ثانية لكنّني شعرتُ بأنّها لم تعد تثقُ بي حتّى إنّي فشلتُ في دفعها إلى الحديث حول أيّ شيء مهمّ. ومع ذلك، استرجعتُ المشاعر القويّة التي انتابتني في الليلة السّابقة وكادت أن تخرجني عن طوري، وشعرتُ بالإثارةِ مجدّدًا خصوصًا عندما حدّقتُ في نهديها. ورغم نفورها الظّاهرِ، لم تعترض عندما داعبتها قليلاً وأنا أراقصها. وكما حدث في الليلة السابقة، غادر أصدقاءُ الفتاتين مبكّرا، فبقينا

نحنُ الأربعة بمفردنا. ومع أنّ «جين» لم تكن قادرة على الوقوف على قدميها، بسبب ما شربتهُ، إلاّ أن رغبتها فيّ ظلّت مشتعلة، فسعيتُ إلى إقناعها بالتريّثِ قليلاً ريثما نصعدُ إلى الطابق العلويّ. ولحسنِ الحظّ، بدت مجهدةً جدّا، فيما واصلَ «ديكس» شربَ «الروم». حوالي العاشرة مساءً صعدنا جميعًا إلى غرفنا، لكنّي سرعانَ ما نزلتُ إلى الطّابق الأرضيّ كي آخذ كتابًا من المكتبة، لاسيّما أنّي لم أكن راغبًا في قضاء اللّيلة مع «جين» كما لم أكن أشعرُ بالنّعاسِ والرّغبةِ في الذّهابِ إلى السريرِ مبكّرًا.

عندما عدتُ إلى غرفتي، وجدتُ «لو» جالسة على طرف السرير، مرتديةً غلالة النوم نفسها التي لبستها ليلة أمس، وسروالا تحتيًّا جديدًا. أغلقت باب غرفتي بالمفتاح، وكذلك باب غرفة الحمام، ثمّ تمدّدتُ فوق سريري دونَ أن ألمسها وكأنّها غير موجودة. بعد ذلك نهضتُ وشرعتُ في نزع ملابسِي، وما إن فعلتُ ذلك حتّى سمعتُ صوت أنفاسها وهي تتسارعُ. وحينَ دلفتُ إلى الفراشِ قرّرتُ أن أحادثها، فقلتُ:

- «لو»، ألا تشعرين بالنّعاس هذه الليلة؟ هل أستطيع مساعدتك بشيء؟

- لا، لقد جئتُ كي أتأكد أنّك لن تذهب إلى غرفة «جين» هذا المساء.

- ما الذي دفعك إلى الاعتقاد أنّي كنتُ عندها في الليلة السابقة؟

- لقد سمعتكما...

أجبتها ساخرًا:

- لقد أثرتِ دهشتي، لأنّي لا أظنّ أنيّ أحدثتُ جلبةً بالأمس.

- لماذا أغلقت هذين البابين؟

- دائمًا ما أغلقُ الأبواب حين أخلدُ إلى النوم، فأنا لا أحبُّ أن أستيقظ لأجد غريبًا إلى جانبي.

لا ريبَ أنّها تعطرّت من رأسها إلى أخمص قدميها، بل إن بمقدور المرء أن يشمّ رائحة عطرها على بعد أميال، أمّا زينتها فبدت مذهلة، لاسيّما أنّها حافظت على تسريحة شعرها التي رأيتها في الليلة السابقة، وذلك المفرق الذي يشطرهُ إلى نصفين. وفي الواقع، لقد كان يكفيني أن أمدّ يدي وأقطف تلك البرتقالة الناضجة، إلاّ أنّي أحجمتُ إذ يوجدُ حسابٌ عالق بيننا يتعيّن عليّ تسويته قبل كلّ شيء.

لقد جاءني صوتها واثقا وهي تقولُ:

- أعرفُ أنّك ذهبت إلى غرفة «جين» ليلة أمس.

- على أيّة حال، لا تنسي أنّك طردتني خارج غرفتك، وذلك كلّ ما أتذكره.

- أنا لا أحبُّ سلوكَ.

أجبتها ساخرًا:

- مع أنّي أرى أنّي تصرفتُ معك باستقامة ليلة أمس. أعتذرُ منكِ عن خلع ملابسي أمامك، ولكن على أيّة حال، أنا متأكد أنّك لم تسترقي النظر.

غير أنّها ألحتّ قائلة:

- ماذا فعلت لـ«جين»؟

- اسمعي، سأفاجئك وأقول لك الحقيقة كما هي، إذ أنّي أعتقدُ أنّك تستحقين معرفة ما حدث. لقد حدثَ أن قبّلتها ذلك اليوم، ومنذ ذلك الحين وهي ترفض أن تتركني وشأني.

- متى؟

- ذلك اليوم الذي ساعدتها فيه على التخلّص من خُمارها، في منزل «جيكي».

- لقد عرفتُ ذلك.

- لقد أجبرتني على تقبيلها تقريبًا، ولا بدّ أنّك تعرفينَ أنّي شربتُ قليلاً يومها.

- هل قبّلتها حقّا؟

- ما الذي تعنينهُ بـ«حقّا»؟

قالت بخفوتٍ:

- أقصدُ مثلما قبّلتني...

قلتُ بنبرةٍ صادقة أشعرتني بالرّضا:

- لا. لقد ضايقتني أختك يا «لو». كما أنّي أريدكِ أنتِ. لقد قبلتُ «جين» كما لو كنتُ... كنتُ أقبّلُ أمّي، لكنها تتوهمّ أشياء لا وجود لها سوى في خيالها. لا أعرفُ كيف أتخلّص منها بل

أخشى ألاّ أكون قادرًا على ذلك. أعرفُ أنّها ستخبرك حتمًا أنّنا قررنا أن نتزوّج. لقد جاءتها الفكرة هذا الصباح عندما خرجنا في سيّارة «ديكس». إنّها جميلة ولكن لا رغبة لي فيها، كما أنّي أعتقدُ أنّها سخيفة بعض الشيء.

- ولكنّي رأيتك تقبّلها منذ ذلك الوقت.

- هي من تقبّلني. لعلّك تعرفينَ أنّك إذا اهتممتِ بشخصٍ مّا وهو يعاني من آثار الشرّاب، فإنّه سيظلّ يشعرُ نحوك بالامتنان.

- هل ندمت على تقبيلها؟

- لا ولكن ثمة أمرٌ واحدٌ ندمتُ عليه، هو أنّك لم تكوني أنتِ الثملة تلك الليلة، بدلاً منها.

- إنّك تستطيعُ أن تقبّلني الآن.

بعدَ أن أتمّت جملتها، لم تتحرّك من مكانها وبقيت تنظرُ أمامها. فحدستُ أنّها أنفقت جهدًا كبيرًا كي تقول ذلك. ثمّ ما لبثتُ أن قلتُ:

- لا أستطيع أن اقبّلك يا «لو». مع «جين» لم يكن الأمرُ مهمّا. أمّا معك أنتِ، فالأمرُ يختلفُ، فأنا لن ألمسك قبل...

لم أنهِ جملتي بل أطلقتُ زفرة يائسة وأنا أستديرُ إلى الناحية الأخرى من السرير.

قالت «لو» متسائلة وهي تستديرُ بجذعها قليلاً وتضعُ يدها فوق ذراعي:

- قبل ماذا؟

- هذا جنون! أعرفُ أنّ الأمر مستحيل.

- قل لي، قبل ماذا؟

- لقد قصدتُ... أنّي لن ألمسك قبل أن نتزوّج يا «لو»، أنا وأنت. ولكنّك ما تزالين صغيرة زد على ذلك أنّي لن أتمكنّ من التخلّص من «جين» التي لن تتركنا وشأننا.

- هل أنت جادّ فيما قلته؟

- في ماذا؟

- الزّواج بي!

أجبتها مؤكّدًا:

- لا يمكنُ أن أكونَ جادّا حيال مسألة أراها مستحيلة، ولكن إذا قصدتِ أنّ هذا ما أفكّرُ فيه وما أرغبُ بهِ حقّا، فإنّي أقسمُ أنّ هذا ما أريدهُ.

إثر ذلك، نهضتْ من السرير فيما بقيتُ مستلقيا على جانبي وظهري يواجهها. لم تقلْ شيئا ولا أنا أيضا، لكنّي شعرتُ بها وهي تتمدّدُ فوق السّرير إلى جانبي. وبعد لحظاتٍ من الصّمت، تناهى إليّ صوتها وهي تقولُ:

- «أندرسون».

شعرتُ حينئذٍ بنبضي يتسارعُ حتّى ردّدَ السريرُ صداه، فاستدرتُ

نحوها ورأيتها تخلعُ غلالتها، وسروالها الداخلي، ثمّ أغمضت عينيها واستلقت على ظهرها. ما إن رأيتُ ذلك حتّى فكّرتُ في أن «هوارد هيوز»[1]، كان سيصنعُ دزينة من الأفلام فقط من أجل نهدي تلك الفتاة، مع ذلك لم ألمسها، بل قلتُ لها:

- لا أريدُ أن أفعل ذلك معك، لأنّي أجدُ ما حدث بيني وبين «جين» مثيرًا للاشمئزاز. قبل أن تلتقيني، كنتما متفاهمتين جدًّا، وأنا لا أريدُ أن أفسد ما بينكما، تحت أيّ ظرف.

في الواقع، كلّ ما كنتُ أشعرُ به لحظتها دفعني إلى التفكيرِ فيما إذا كنتُ أرغبَ في شيء مّا قدر رغبتي في مضاجعتها إلى أن أصاب بالجنون، إلاّ أنّي تمالكت نفسي، وهي تقولُ لي:

- إنّ «جين» تحبّك. أرى ذلك بوضوح.

- لا أستطيعُ أن أفعل شيئا حيال ذلك.

بدت لي ناعمة ورقيقة مثل عشبة، تعبقُ برائحة عطرة كأنّها تفوحُ من متجر عطور. حينئذٍ، اعتدلتُ ثمّ ملتُ فوق ساقيها، وشرعتُ أقبّلُ داخل فخذيها، في ذلك المكان الذي تكونُ فيه بشرة المرأة أكثر نعومة من ريش العصافير، حتّى إنّها ضمّت ساقيها قبل أن تباعدَ بينهما على الفور، فملتُ عليها مرّةً أخرى ولكن أعلى قليلاً في هذهِ المرّة، حتّى داعبَ خدّي شعرُ عانتها اللامع والمجعّدُ، فشرعتُ في لعقه بنعومةٍ وخفّة. لقد بدا لي فرجها ساخنًا، رطبًا، وثابتًا تحتَ

(1) هوارد هيوز (1905-1976): صناعي وطيار ومنتج أفلام سينمائية أمريكي.

لساني، وشعرتُ برغبة في عضّه لكنّي أحجمتُ عن ذلك واعتدلتُ في جلستي.

إلاّ أنّها رفعت جذعها فجأة وأمسكت رأسي ثمّ أعادتهُ إلى فرجها. لكنّي حاولتُ تحرير نفسي منها قائلاً:

- لا أريدُ أن أفعل ذلك. لا أريدُ طالما أنّ هذه القصة مع «جين» لم يقع إنهاؤها. ولا أستطيع أن أتزوّجكما أنتما الاثنتان.

ثمّ قضمتُ حلمتيها فيما واصلت هي إمساك رأسي بين يديها مغمضة العينين، قبل أن أضيف:

- «جين» تريدُ أن تتزوّجني. لماذا؟ صدقًا لا أعرف. ولكنّي لو رفضتُ، فستعثرُ حتمًا على حيلةٍ وتحولُ بيننا.

حافظت على صمتها، وظهرها يتقوّسُ أكثرَ تحت تأثير مداعباتي. وفيمَا يدي اليمنى تتحرّكُ جيئة وذهابًا فوق فخذيها، شعرتُ بأنّها تسارعُ بفتحِ فرجها كلّما لمستُه. واصلتُ حديثي قائلاً:

- أنا لا أرى سوى حلّ واحدٍ هو أن أتزوّج «جين» ومن ثمّ يمكنك أن تأتي للعيش معنا وهكذا لن نعدمَ الوسيلة في رؤية بعضنا البعض.

ما إن قلتُ ذلك حتّى أجابتني بخفوتٍ:

- لا أريدُ ذلك!

كان صوتها يرتفعُ وينخفضُ في غير انتظام حتّى إنيّ شعرتُ أنّني

قادرٌ على العزفِ عليه كما لو كان آلة موسيقيّة. بل وبدَا لي أنّها تُغيّر في نغمة صوتها مع كلّ لمسة جديدة. ثمّ ما لبثت أن قالت:

- لا أريدك أن تفعل هذا معها مجدّدًا.

- لا شيء يجبرني على ذلك.

- أوه، افعل ذلك معي، افعلهُ حالاً!

كنتُ أشعرُ بارتعاشِ جسدها، وانقباضهِ، كلّما ارتفعت يدي أعلى فخذيها. ثمّ أدخلتُ رأسي بين ساقيها، وأدرتها على جانبها، كي يكونَ ظهرها في مواجهتي، وبعد ذلك، رفعتُ إحدى ساقيها وأدخلتُ فمي بين فخذيها، وشرعتُ ألعقُ فرجها فتصلّبت، على نحوٍ مباغتٍ، قبل أن تلينَ في الحال. وبعد أن مصصتُ عضوها قليلاً، تراجعتُ إلى الوراء، فيما استلقت هي على بطنها. فهمستُ في أذنها:

- لن أضاجعك يا «لو»، أقصدُ أنّي لن أضاجعك قبل أن نتأكد من صدقِ مشاعرنا. سأتزوّجُ «جين» وبعد ذلك سنتدبّر أمرنا. هل ستساعدينني على ذلك؟

ما إن تفوّهتُ بذلك حتّى عادت إلى الاستلقاءِ على ظهرها سريعًا قبل أن تمسك رأسي وتقبّلني بشيء من الغضب لتصطدمَ أسنانها بأسناني فيما رحتُ أنا أداعبُ أسفلَ ظهرها ثمّ أمسكتها من خصرها وأجبرتها على النّهوضِ قائلاً:

- هيّا عودي إلى سريرك، فلقد تفوّهنا بالكثير من الحماقات. هيّا عودي إلى سريرك وكوني عاقلة.

ثمّ نهضتُ أنا أيضًا وقبّلتها بين عينيها. لحسن حظّي، كنتُ قد احتفظتُ بسروالي التحتيّ تحت منامتي، ما منعني من ارتكابِ حماقةٍ، ثمّ ساعدتها على ارتداء حمّالة صدرها وسروالها التحتّي، ومسحتُ فخذيها بشرشف السّرير، وبعد ذلك قدّمتُ لها غلالة نومها الشفّافة. لقد تركتني أساعدها دون أن تقول شيئًا. وبدت لي ناعمة ودافئة بين ذراعيّ، وأنا أقولُ لها:

- هيّا إلى النوم يا عزيزتي الصغيرة، فغدًا سأرحل. حاولي أن تنهضي باكرًا كي نتناول الإفطار معًا لأنّي أحبّ أن أراك قبل مغادرتي.

ثمّ دفعتها خارج الغرفة وأغلقتُ الباب، وقد أيقنتُ حينئذٍ أنّ الفتاتين مغرمتانِ بي وألاّ فكاك لهما منّي حتّى إنّ فرحًا داخليًّا غمرني وشعرتُ بأنّ الصبيّ مبتهجٌ هو أيضًا في قبره.

عندئذٍ مددتُ لهُ يدي، فلا شيء يساوي حقّا متعةَ أن تصافح يدَ أخيك.

(16)

بعد أيّام قليلة، تلقيتُ رسالة من «توم»، لم يخبرني فيها بالشيء الكثير عمّا كانَ يفعلهُ، ولكنّها جعلتني أحدسُ أنّهُ عثرَ على وظيفة متواضعة في إحدى مدارس «هارلم». لقد استشهدَ في رسالتهِ بمقطعٍ من «الكتاب المقدّس»، بعد أن وضعَ في هامش رقم السفرِ والآية، لأنّهُ يعلمُ أنّي غير مطلّعٍ على مثل تلك النّصوصِ، جاءَ فيه: «لماذا آخذُ لحمي بأسناني وأضعُ نفسي في كفّي؟»[1]. ولقد خّمنتُ أنّ هذا الرّجل[2]، كما فهمتُ من تأويل «توم» للنّص، أراد أن يقولُ إنّه لعب ورقتهُ الأخيرة وقامر بكلّ شيء، ووجدتُ أنّها طريقة معقّدة اعتمدهَا «توم» للتعبير عمّا يشعرُ بهِ. وبهذا الخصوص، لم أر أنّ «توم» تغيّر كثيرًا ولكنّه مع ذلك يظلّ من وجهة نظري رجلاً شجاعًا. ومن ثمّ أرسلتُ لهُ رسالة أخبرتهُ فيها بأنّي في أفضلِ حالٍ ثمّ أرفقتُ الرّسالة بورقة مالية من فئة الخمسين دولارًا، لأنّي شعرتُ بأنّهُ لم يكنْ يتغذّى جيّدًا.

---

(1) سفر أيّوب 13/ 14.

(2) يقصدُ النبيّ أيوب.

أمّا عن بقيّة أحدث أيّامي، فلا يوجدُ شيء مهمّ للحديث عنه، إذ أنّ حياتي كانت تدورُ في فلك الكتب ولا شيء غير الكتب. كنتُ تلقيتُ قوائمَ بألبومات عيد الميلاد وبعض العروض التجاريّة من مزوّدين آخرين يشتغلون لحسابهم الخاصّ، لم تكن شركتي الأمّ تتعاملُ معهم، لكنّي لم أقتنِ شيئًا منهم، لأنّ عقدي مع الشركة يمنعني من ذلك، ولم أكن لأخاطرَ بمهنتي من أجل ذلك. في بعض الأحيانِ، كنتُ أطردُ نوعًا آخر من المزوّدين، أولئك الذي يبيعون المجلاّت الإباحيّة، ولكن من دون فظاظةٍ، لأنّ أغلبهم كانوا من الزنوج أو الخلاسيّين الذين اضطرّوا للقيام بذلك العمل. وعمومًا، كنتُ أقتني منهم مجلّة أو اثنتين، أسلّمها إلى أفراد العصابة، وخصوصًا إلى الشقراء «جودي» التي تقبلُ عليها بشغفٍ. وإذ أخصُّ «جودي» بالمجلاّت فلأنّي أعرفُ أنّي سأكونُ بمأمنٍ من أيّ مخاطرة غير محسوبةٍ.

حافظ أفراد العصابةِ على لقاءاتهم داخل المجمّع التجاري، وزيارتي في المكتبة، فيما حافظتُ أنا أيضا على عادةِ النومِ بانتظامٍ مع الفتيات، بمعدّلِ يومينِ في الأسبوع. لقد بدونَ لي غبيّات أكثر منهنّ عاهرات، باستثناء «جودي».

كانت «جين» و«لو» ستأتيان إلى «بوكتون» آخر الأسبوع، بعد أن ضربتُ مع كلّ منهما موعدًا منفصلاً، قبل أن تخبرني «لو» بأنّه يتعذّر عليها القدومُ. ثمّ حدثَ أن تلقيّتُ اتصالاً هاتفيا من «جين» دعتني فيه إلى زيارة منزل عائلتها خلال عطلة نهاية الأسبوع الموالي لكنّي أخبرتها بأنّي لا أستطيع، لأنّي أرفضُ أن أصيرَ بيدقاً تتلاعبُ به

تلك الفتاة، غير أنّها أعلمتني بأنّها تشعرُ بتوعّكٍ وترغبُ في أن أذهب إلى زيارتها، فأخبرتها بأنّه لديّ الكثير من الأعمال غير المنجزة، عندئذٍ وعدتني بالقدوم يوم الاثنينِ، مع الساعة الخامسة مساءً، وحينها سيكون لدينا متسّعٌ من الوقت للحديث.

وإلى حدود يوم الاثنين، لم أقم بشيء ذي بال، باستثناء تعويضِ عازف الغيتار في نادي «ستورك»، بمناسبةِ سهرةِ السّبت، ما مكّنني من جنيِ خمسة عشر دولارًا علاوةً على الشراب المجاني -وهو ليسَ بالأمر السيّء في حانةٍ كتلك- والاكتفاءِ بالمطالعة أو العزف على الغيتار داخل شقّتي، كما تخليّتُ عن الرقص النقريّ عندما أقابلُ أفراد العصابة، إذ أنّ شعبيّتي المتعاظمة بينهم، لم تعد تحتاجُ إلى مثل تلك الحركات، على أملِ أن أعودُ يومًا مّا إلى الرقص بعد أن أجهز على ابنتيْ السيّد «آسكيث»، كما اشتريتُ علب الرّصاصِ لمسدّسِ الصبيّ الذي أحتفظ به، وأنواع مختلفة من المخدّرات، وحملتُ سيّارتي إلى الورشة للقيام بفحصٍ شامل عليها، قبل أن يقومَ الميكانيكيّ بإصلاحِ بعض الأعطاب فيها.

طوال ذلك الوقت، لم أسمع خبرًا واحدًا عن «ديكس»، رغم أنّي حاولتُ الاتصال به يوم السبت صباحًا، لكنني عرفتُ أنّهُ غادر المدينة لقضاء عطلة نهاية الأسبوع، دونَ أن يعلمني أيّ واحدٍ ممّن سألتهمُ عن وجهته، فخمّنتُ أنّهُ قد يكون ذهب لمضاجعة طفلتيْ العشر سنوات في منزل «آنا»، لاسيّما أنّ بقيّة أفراد العصابة كانوا هم أيضا يجهلونَ المكانَ الذي يقضي فيهِ وقتهُ طيلة أيّام الأسبوع.

وحوالي الساعة الرّابعة من يوم الاثنين، توقّفت سيّارة «جين» أمام باب المكتبة، فازداد يقيني في أنّ تلك الفتاة لا تولي حقّا أدنى اهتمامٍ لما يمكن أن يتقوّلهُ الناسُ عنها. لقد نزلت من السيّارة ودخلت المتجرَ الفارغ إلاّ منّا نحن الاثنين، ثمّ اقتربت منّي وأعطتني قبلة طويلة لا ريبَ في أنّها احتفظت لي بها كلّ ذلك الوقت. طلبتُ منها أن تجلسَ وقد تعمّدتُ ألاّ أنزلَ ستار المتجر الحديدي كي تعيَ جيّدًا أنّ قدومها المبكّر أثارَ حفيظتي. ومع ذلك، بدت لي في حالٍ سيئة، رغم المساحيق التي تضعها، لا سيّما مع تلك الهالات السوداء تحت عينيها. وكعادتها، كانت ترتدي أغلى ما يوجدُ من ثياب، مع قبّعة، بدا لي من الواضحِ أنّها لم تشترها من متاجر «ماسي»[1]، إلّا أنهّا جعلتها تبدو أكبر من سنّها. ما إن جلستْ حتّى سألتها:

- هل كانت السفرة مريحة؟

- لقد بدت لي المسافة أقرب من «بريكسفيل» عكس ما كنت أتصوّر.

- حسنًا، لقد أتيتِ مبكرًّا.

تطلّعت إلى ساعتها المرصّعة باللآلىء، ثمّ قالت:

- ليس كثيرًا... فالساعةُ تشيرُ إلى الخامسة إلاّ خمس وعشرين دقيقة.

قلتُ معترضًا:

---

(1) متاجر «ماسي»: إحدى أقدم سلاسل المتاجر الأمريكية.

- إنّها الرابعة وتسع وعشرون دقيقة. تبدينَ مستعجلة كثيرًا.

- هل يزعجك هذا؟

سألتني وهي تتخّذُ هيئة متغنّجة، ما أثارَ حفيظتي.

- بالتأكيد، فلديّ أشياء أخرى، ليسَ من بينها اللّهوُ، عليّ أن أنجزها.

أربكتها إجابتي فقالت هامسةً:

- «أندرسون»، كن لطيفًا معي.

- سأكونُ لطيفًا متى انتهيتُ من أعمالي.

كرّرت بخفوت:

- أرجوك، كن لطيفًا، فأنا أنتظرُ...أنتظرُ...

ثمّ لاذت بالصمت. ومع أنّي أدركتُ ما كانت تريدُ قولهُ إلاّ أني أردتُ أن أسمعه منها، فقلتُ:

- ماذا تقصدين؟

- أنا حبلى يا «أندرسون».

علّقتُ ساخرًا ومهدّدا في الآنِ نفسهِ، وأنا أشيرُ بإصبعي:

- لا ريبَ أنّك تركتِ أحد الرّجالِ يستغلُّ براءتك.

أضحكتها جملتي لكنّ ملامحها ظلّت مشدودة ومتوتّرة. وما لبثت أن قالت:

- يجب أن تتزوّجني في أسرع وقت يا «أندرسن»، وإلاّ فإنّ فضيحة شنيعة ستكون بانتظاري.

طمأنتها قائلا:

- لا تخافي، فمثل هذه الأمورُ تحدثُ كلّ يوم.

بعد ذلك تصنّعتُ الابتهاجَ، لأنّي لم أكن أرغب في دفعها إلى الرّحيل قبل تسوية كلّ شيء، لا سيّما أنّ النّساء عادةً ما يكنّ عصبيّات في مثل حالتها، ثمّ اقتربتُ منها وداعبتُ كتفيها، قائلاً:

- لا تتحرّكي من مكانك. يجب أن أغلق المتجر لكي نكونَ مرتاحين أكثر.

حدّثتُ نفسي بأنّ التخلّص منها سيكون أسهلَ بالتأكيد خصوصًا وهي تحملُ ذلك الجنين، إذ سيذهبُ في ظنّ الجميع أنّها أنهت حياتها خوفًا من الفضيحة. ثمّ توجّهتُ نحو الباب وعالجتُ المفتاح الذي يتحكّمُ في ستارة المتجر فنزلت ببطء دون أن تحدث ضجيجا عدا ما خلّفتهُ التروسِ من قرقعة بسبب احتكاكها بالزوايا المزيّتة.

وعندما استدرتُ، رأيتُ «جين» تسرّح شعرها كي تعيد له مرونتهُ، بعد أن خلعت قبّعتها، وشعرتُ أنّها أفضلَ بلا قبّعة. لقد كانت فتاة جميلة حقّا.

فجأة، سألتني قائلة:

- متى سنرحلُ؟ سيكون عليك الآن أن تأخذني بعيدًا وفي أسرعِ وقتٍ ممكن.

- في مقدرونا أن نغادر نهاية هذا الأسبوع، إذ أنّي رتّبتُ كلّ أعمالي وكلّ ما عليّ فعلهُ هو أن أعثرَ على عملٍ في المكانِ الذي سنذهب إليه.

- سأحملُ معي بعض المال.

بصراحة، لا نيّة لديّ في أن أصيرَ عالة على أحدهم، خصوصًا على تلك الفتاة التي أنوي قتلها.

- بالنسبة إليّ، ما قلتهِ لن يغيّر رأيي، فأنا أرفضُ أن آخذ مالك. دعينا نتفّقْ على هذا مرّة واحدة وإلى الأبد.

لم تجبني بل أخذت تتململُ فوق مقعدها مثل شخصٍ لا يجرؤ على قول أيّ شيء. لذا قلتُ مشجّعًا:

- هيّا، أفرغي ما بجوفك. ما الذي فعلته من وراء ظهري؟

- لقد راسلتُ أحد النزّلِ، بعد أن عثرتُ على عنوانٍ في صفحة إعلانيّة. وأعلموني أنّ المكانَ مقفرٌ وملائمٌ لمحبّي العزلة من العشّاق الذين يرغبون في تمضية شهر عسل دون إزعاج.

أجبتها متبرّمًا:

- إذا كان كلّ العشّاقِ الذين يبحثون عن الوحدة سيلتقون هنالك فسيكونُ المكان أشبه بمحطّة مزدحمة.

ضحكت وبدت الرّاحةُ على ملامحها. لقد بدت لي أنّها ليست من ذلك النوع من الفتيات اللائي يحتفظن بالأسرار.

ثمّ استأنفت حديثها:

- لقد أرسلوا لي رسالة، أخبروني فيها بأنّهم سيخصّصون لنا جناحًا منفصلاً للنوم ولكنّ الإفطار سيكونُ داخل النّزل.

- أفضلُ ما يمكنك فعلهُ هو أن تغادري أنتِ أوّلاً ومن ثمّ سألحقُ بك، وبهذه الطريقة سيكونُ لديّ الوقتُ الكافي لإنهاء كلّ الأمور العالقة.

- أفضّلُ لو ذهبنا إلى هنالك معًا.

- هذا غير ممكن. عودي إلى المنزل كي لا تثيري الشكوك، ولا تجهّزي حقيبتك إلاّ في آخر لحظة. لستِ مضطرّة لحمل الكثير من الأغراض وإيّاكِ أن تتركي رسالة تكشفين فيها عن وجهتك. لا يجب أن يعرف والداك بالأمر.

- متى ستلحقُ بي؟

- يوم الاثنين القادم. سأغادرُ المدينة مساء الأحد.

حدّثتُ نفسي بأنّي إذا غادرتُ مساء الأحد، فلن يلاحظ أحدٌ ذلك، لكنّ أمرا واحدا بقي عليّ القيام به وهو أن أتدبّر أمر «لو»، لذا أضفتُ قائلاً:

- طبعًا، أفترضُ أنّك أخبرتِ أختك.

- لا، ليس بعد.

- لا بدّ أنها تشكُّ في أمرٍ ما. على أيّة حال، سيكونُ من الأفضل

لو أخبرتها، فأنتِ قد تحتاجينها للتوّسط بينك وبين والديك، إذا ساءت الأمورُ. أنتما متفاهمتان، أليس كذلك؟

- أجل.

- إذن، أخبريها ولكن لا تفعلي ذلك إلاّ في اليوم الذي ستغادرين فيه. واتركي العنوان ولكن بطريقة لا تجعلها تعثر عليهِ إلاّ بعد مغادرتك.

- كيف أفعلُ ذلك؟

- تستطعين وضع العنوان في مغلّفٍ تضعينهُ في صندوق بريدٍ ما إن تكوني على بعد مائتي ميل أو ثلاثمائة. يمكنك أن تضعيه أيضا داخل أحد الأدراج. ثمّة أكثر من طريقة لفعل ذلك.

- لا أحبُّ كلّ هذا التعقيد. أوه يا «أندرسون»، ألا يمكننا أن نرحل ببساطة، نحنُ الاثنان، ونقول للجميع إنّنا نريدُ أن نكون بمفردنا؟

- هذا غير ممكن. قد تستطيعين أنت فعل ذلك أمّا أنا فلا، لأني لا أملكُ مالاً.

-هذا لا يشكّلُ فارقا بالنسبة إليّ.

- انظري إلى نفسك في المرآة، إنّ هذا لن يشكّل معك فارقًا لأنّك تملكين المال.

- لا أجرؤ على إخبار «لو»، فهي بعدُ في الخامسة عشر من عمرها.

أضحكتني جملتها، فتابعتُ متسائلاً:

- هل تعاملينها كرضيعة أم كثوبِ سباحة؟ يجبُ أن تعرفي أنّه، في العائلات التي توجدُ فيها شقيقات، تتعلّمُ الشقيقةُ الصغرى الأمورَ نفسها، وتقريبًا في نفس الوقت مع الأخت الكبرى. لو كان لديكِ أخت بعمر العشر سنوات، فثقي أنّ إدراكها سيكون بمستوى إدراكِ «لو».

- ولكنّ «لو» مجرّدُ طفلة.

أجبتها ساخرًا:

- طبعا، طبعا، كلّ ما عليك فعلُه هو أن تنظري إلى ملابسها، فحتّى العطور التي تضعها تشهدُ ببراءتها. يجب أن تخبري «لو». دعيني أكرّرْ هذا على مسامعك: أنت تحتاجين إلى شخصٍ يمكنُ أن يكون وسيطا بينك وبين أبويك.

- أفضّلُ ألاّ يعرف أحدٌ بالأمر.

ضحكتُ بكلّ الشراسة التي أمتلكها، وأنا أعلّقُ ساخرًا:

- لا يبدو أنّك شديدة الفخر بالرّجلِ الذي أغرمتِ به، أليس كذلك؟

أخذ فمها في الارتعاش حتّى ظننتُ انّها ستنفجر بالبكاء، ثمّ نهضت من مكانها قائلة:

- لماذا تقول لي هذه الكلماتِ الموجعة؟ هل تشعرُ بالسعادة وأنت تؤذيني؟ إذا كنتُ لا أريد إخبار أحد فلأنّي خائفة...

- من ماذا؟

- من أن تهجرني قبل أن نتزوّج.

هززتُ كتفيّ، قائلاً:

- هل تعتقدين أن الزّواج سيمنعني من أن أهجرك؟

- أجل إذا كان لدينا طفل.

- أوافقك القول في أنّي لن أتمكنّ من الحصولِ على الطلاق إذا كان لدينا طفل، ولكن ثقي أنّ ذلك لن يكون كافيًا ليحول بيني وبين هجركِ إذا أردتُ ذلك.

انفجرت في تلك اللّحظةِ بالبكاء، وهي تسقطُ على كرسيّها متهالكة، وقد خفضت رأسها قليلاً، والدّموعُ تسيلُ على وجنتيها الممتلئتين. حينئذٍ أدركتُ أنّي تسرّعتُ فاقتربتُ منها، ووضعتُ يدي على رقبتها وشرعتُ في مداعبة عنقها. ثمّ أجابتني من بين دموعها:

- أوه يا «أندرسن»، لم أحسب أن يكونَ لقاؤنا مخالفًا لما توّقعتهُ، فلقد ظننتُ أنّك ستكون سعيدًا عندما أكونُ لك وحدك.

قلتُ لها شيئا سخيفًا قبل أن تشرع في التقيّؤ، وعندما لم أجد أيّ شيء في متناول يدي، ولا حتّى منشفة، اضطررتُ إلى الركضِ نحو الغرفة الصغيرة، في آخر المتجر، وأخذتُ الممسحة التي تستخدمها المنظّفة لتنظيف المكتبة، وقد حدستُ أنّ الجنين هو من يجعلها مريضة. وعندما توقّف فَواقُها، قمتُ بمسحِ وجهها بمنديلها، فيما راحت عيناها تلتمعان من البكاء، وكأنّهما غُسلتا للتوّ، وصدرها

ينهجُ بعنف. ثمّ مسحتُ حذاءها المتّسخ بقطعة من الورق، ومع أنّ رائحة القيءِ أزعجتني إلاّ أنّي ملتُ نحوها وقبّلتها، فاحتضنتني بعنفٍ وهي تهمسُ بكلماتٍ لا نهاية لها. قلت لنفسي إنّني غير محظوظٍ مع تلك الفتاة، فهي مريضةٌ في كلّ الأحوالِ، عندما تشربُ كثيرًا أو تضاجع كثيرًا.

ثمّ ما لبثتُ أن قلتُ لها:

- من الأفضل أن تغادري الآن. هيّا عودي إلى المنزل واهتمّي بصحّتك. بعد ذلك جهزّي حقيبتك وغادري مساء يومَ الخميس. سألتحق بك الاثنين القادم خصوصًا أنّي تدبّرت أمر الخاتمِ بالفعل.

فجأة أشرق وجهها بابتسامةٍ ذاهلة وهي تسألني:

- «أندرسون»، هل صحيح ما تقولهُ؟

- طبعًا.

- أوه كم أحبّك يا «أندرسون»... هل تعلم، سنكونُ سعيدين جدّا معًا.

الحقُّ أقولُ، إنّ قلبها لا يحملُ أيّ ضغينة ناحيتي، لا سيّما أنّ أغلب فتيات تلك البلاد لا يتصالحن مع أحبّائهنّ بسهولة.

ثمّ ساعدتها على الوقوفِ وأخذتُ أداعبُ نهديها من فوق فستانها، فشدّت جسدها وتقوّست على نفسها، وبدا لي أنّها ترغبُ في أن أستمرَّ في مداعباتي، فيما كنتُ أرغبُ أنا في تهوية الغرفة،

لكنّها تشبثتْ بي وفكّتْ أزرار قميصي بيدٍ واحدة. حينئذٍ، رفعتُ فستانها ووطأتها فوق الطاولة التي يضعُ عليها العملاءُ الكتب التي تصفّحوها. لقد أغمضت عينيها حتّى إنّها بدت لي كالميّتة، وعندما شعرتُ أنّها بدأت تصلُ إلى الذروةِ، واصلتُ مباشرتها إلى أن تأوّهتْ، فقذفتُ فوق فستانها، لكنّها حينَ اعتدلت في جلستها، رفعت يدها إلى فمها، وأخذت تتقيّأ مرّة أخرى.

ساعدتها على النهوض، ثمّ أغلقتُ أزرار معطفها. وبعد أن عبرتُ بها الباب الموجود في آخر المتجر، وأنا أكادُ أحملها تقريبًا، أوصلتها إلى سيّارتها وساعدتها على الجلوس وراء المقود. لقد بدت لي مريضة جدّا ولكنّها وجدت القوّة كي تعضّ شفتي السفلى حتّى طفرَ الدمُ منها. لم أشتكِ من ذلك وتابعتها بعينّي وهيَ تغادرُ، وقد خمّنتُ أنّ السيّارة تعرفُ طريقها، لحسن حظّها.

(17)

لم أكن قد فكّرتُ، إلى حدودِ تلك اللّحظةِ، في كلّ التعقيدات التي جرّتني إليها خطّتي للقضاء على الفتاتين، بل وراودتني فكرةُ التخلّي عن مشروعي، ونسيانِ الأمر برمّتهِ، ومن ثمّ الاكتفاءَ ببيع الكتبِ وتحسين مستواي المعيشي. ومع ذلك، شعرتُ بأنّي مجبرٌ على قتلهما، لا من أجل الصبيّ و«توم» فحسب ولكن من أجلي أنا أيضا. لقد سبقَ أن عرفتُ أشخاصًا، تجاوزوا الخطّ مثلي، حاولوا أن ينسوا دماءهم الأصليّة ويلتحقوا بمعسكر البيض في جميع الحالات والظروف، بل ولم يتردّدوا في ضربِ السّودِ كلّما تسنّت لهم الفرصة. ولئن كنتُ أودُّ أن استمتع بالإجهازِ على هؤلاءِ أيضًا، إلاّ أنّهُ يتوجّبَ عليّ أن أنّفذ خطّتي تدريجيّا.

سأبدأ أوّلاً ببنتي السيّد «آسكيث»، ولن أعدمَ عشراتِ الفرص السّانحة بعد ذلك لقتل الآخرين: كلّ من التقيتهم من صبيانِ العصابة، كـ«جودي» و«جيكي» و«بيل» و«بيتي»، على الرغمِ من أنّ أولئك لا يعنونني كثيرًا، لأنّهم عيّنة غير مهمّة مقارنة ببنتيْ آل «آسكيث»، اللّتينِ تمثلانِ الحالة التي سأبدأ بها التجربة. بعد ذلك، سأتدبرُ أمري وأتمكنّ

من تصفية شخصيّة مهمّة، قد تكون عضو مجلس شيوخ أو أيّ شيء من هذا القبيل. أنا أحتاجُ إلى قتل الكثير منهم كي يهدأ روعي، ولكن عليّ أن أفكّر أوّلاً وقبل كلّ شيء، في الطريقة التي سأفلتُ بها من العقابِ، ما إن تنتهي حياة هاتين الفتاتين على يديّ.

إنّ أفضل ما يمكنُ أن أفعلهُ هو أن أموّه العملية وأجعلها تبدو كحادث سيّارة. سيتساءلون عن سبب قدومهما إلى تلك المنطقة المحاذية للحدود، ثمّ سيتوقفّون عن ذلك بعد إجراء عملية التشريح لحظةَ اكتشافهم أنّ «جين» حبلي. حينئذٍ سيبدو وجود «لو» مبرّرًا، فهي كانت ترافقُ أختها ببساطة، ومن ثمّة لن تطالني الشكوك. وما إن تنتهي العاصفة وتغلقُ القضيّة، سأخبرُ والديهما بكلّ شيء، سأقولُ لهما إنّ بنتيهما ذهبتا ضحيّة فخّ نصبه لهما رجلٌ أسود. في تلك اللحظة، سيكون عليّ أن أغيّر الأجواء لبعض الوقت قبل أن أشرعَ في القتل من جديد. صحيحٌ أنّها خطة غبيّة ولكنّ الأغبياء هم من ينجحون على نحوٍ أفضل من غيرهم. أنا على يقينٍ أنّ «لو» ستذهبُ إلى هنالك بعد ثمانية أيّام من قدومنا، إذ أنّ الطفلة مغرمة بي، بعد ذلك سأدعوها هي وأختها إلى نزهة بالسيّارة، وأتركُ «جين» تقودُ السيّارة، «جين» التي سينتابها بلا ريبٍ غثيان مفاجئ، ومن ثمّ تنقلبُ السيّارة. هل ثمّة أمر طبيعي أكثر من ذلك؟ وسيكون لديّ متسعٌ من الوقت كي أقفز. سأعثرُ حتمًا على مكانٍ مهيئ لمثلِ تلك اللّعبة، قريبًا من الوجهة التي سأدّلهما عليها. ستكونُ «لو» في المقدمّة إلى جانب أختها وسأجلسُ أنا في المقعد الخلفيّ، وستموتُ «لو» أوّلاً وعندما ترى «جين» ذلك ستفلتُ المقود، وهكذا تنتهي المهمّة.

ولكنّي لم أكن متحمّسًا كثيرًا لتلك الخطة التي تعتمدُ على السيّارة. أوّلاً، لأنّها ليست خطة مبتكرة. ثمّ، وقبل كلّ شيء، لأنّ الأمر سيحدثُ سريعًا جدّا. وأنا أريدُ ان يكون لدّي متّسعٌ من الوقت كي أخبرهما بسبب رغبتي في الإجهاز عليهما، يجبُ أن تعرفا أنّي أمتلك حياتيهما بل وأن تدركا مسبقًا ما الذي سأفعلهُ بهما.

السيّارة... وبعدُ؟ لا، يجب أن أترك السيّارة إلى النهاية. أعتقدُ أنّي وجدتها. أوّلا، سآخذهما إلى مكانٍ مقفر، وهنالك سأناولهما بعض المخدّرات، وهكذا يتوفّرُ الدّافعُ، ومن ثمّ أضعهما داخل السيّارة وبعد ذلك يحصلُ الحادثُ. تبدو لي خطة سهلة وترضيني أكثر. لكن هل ستكونُ حقّا بتلك السهولة؟

بقيتُ أفكّرُ طويلاً في الخطّة الملائمة للإجهاز عليهما حتّى صرتُ عصبيّا. ثمّ ألقيتُ بكلّ تلك الأفكار جانبًا وقلتُ لنفسي، إنّ الأمر لن يحدث البتّةَ كما خطّطتُ لهُ. عندئذٍ تذكرتُ الصبيّ، وتذكّرتُ آخر محادثة لي مع «لو». ثمّة أمرٌ ما حدث لي مع تلك الفتاة، أمرٌ أصبح أكثر وضوحًا. وذلك الأمرُ تحديدًا يستحقُّ عناءَ المخاطرة. إذا تمكّنتُ من استعمال السيّارة للهروب فسيكون ذلك أفضلَ وإلاّ، فسأعثر على حلٍّ آخر، إذ أنّ الحدود ليست بعيدة، وهنالك في «المكسيك»، لا يطبّقون عقوبة الإعدام. ما إن وصلتُ إلى ذلك الحدّ من التفكير حتّى بدأت ملامحُ خطتّي الجديدة تتوضّحُ شيئًا فشيئا، وأدركتُ في الحالِ ما الذي أريدُ أن أفعلهُ بالضبط.

لقد شربتُ الكثير من «البوربون» في تلك الأيّام، لا سيّما مع

حالة الغليانِ التي كانَ عليها دماغي. اشتريت أشياءَ أخرى، إضافة إلى الرّصاص. اشتريتُ مجرفة وفأسًا وحبلاً مع أنّي لم أكن واثقًا من نجاحِ خطّتي الجديدة. لو نجحتُ، فسأحتاجُ الرّصاص على أيّة حال، أمّا لو فشلتُ، فسأستعينُ ببقيّة الأدوات. إنّ المجرفة والفأس يمثّلان صمّام أمان لفكرة أخرى عبرت ذهني. أعتقدُ أنّ أولئك الأشخاص الذين يخطّطون لجريمة قتل يخطئون عندما يضعون خطّة محدّدة سلفًا. في رأيي، سيكونُ من الأفضل لو تركنا مساحة ضئيلة للحظّ، ولكن، عندما تحينُ اللحظة المناسبة، سيكونُ من الضروريّ أيضا أن يجد المرء تحت يدهِ ما يحتاجهُ. لا أعرفُ ما إذا كنتُ مخطئًا عندما لم أجهّز خطّة دقيقة، ولكنّي اكتشفتُ أنّ حماستي خفتت لخطّتي الأولى التي بنيتُ حبكتها على السّيارةِ والحادث، بعد أن أعدتُ النّظرَ فيها. زدْ على ذلك أنّي لم آخذ في الحسبانِ عاملاً جوهريًا هو عامل الوقت، إذ أنّهُ مازالَ أمامي الكثيرُ من الوقت قبل تنفيذِ خطّتي، ولذا لم يكن عليّ أن أشغل بالي بهذه القصّة، خصوصًا أنّ المكان الذي سنذهبُ إليه لا يعرفهُ أحدٌ ولا أظنُّ أن «لو» ستخبرُ أحدًا بذلك، على الأقلّ، ذلك ما كنتُ أرجوهُ بعد المحادثة التي جمعتنا في غرفتي، وذلك ما كنتُ سأتأكّدُ منه ما إن أصل إلى هنالك.

قبل ساعة من مغادرتي، شعرتُ بالرّعبِ في اللّحظة الأخيرة وتساءلتُ إن كنتُ سأجدُ «لو» في انتظاري عندما أصل إلى منزل آل «آسكيث». لقد كانت أسوأ لحظة أعيشها حتّى إنّي جلستُ إلى الطّاولة وبدأتُ أشرب. لا أعرفُ كم شربتُ من كأس ولكنّ دماغي ظلّ صافيًا كما لو أنّ «البوربون» الذي يقدّمهُ «ريكاردو» ليس سوى

مياه أمطار نقيّة. فجأة أشرقَ ذهني بفكرةٍ وعرفتُ بوضوح ما الذي يجبُ عليّ أن أقومَ به، بالوضوحِ نفسهِ الذي رأيتُ به وجه «توم» لحظةَ عبوة البنزين في المطبخ. لقد خرجتُ من الحانة وذهبتُ إلى المجمّع التجاريّ ومن ثمّ دخلتُ إلى مقصورة الهاتف. هاتفتُ عامل تحويل المكالمات الهاتفيّة وطلبتُ «بريكسفيل»، فمرّر لي المكالمة على الفور. رفعت خادمة سمّاعة الهاتفِ وقالت لي إنّ «لو» قادمة، وبعد خمس ثوان، سمعتُ صوتها:

- آلو؟

- أنا «لي أندرسون». كيف حالك؟

- ماذا هنالك؟

- هل غادرت «جين» المنزل؟

- أجل.

- هل تعرفين إلى أين؟

- أجل.

- هل أخبرتك؟

تناهى إليّ صوت ضحكتها السّاخرة قبل أن تقول:

- لقد وضعت علامة على أحد الإعلاناتِ في الصحيفة.

حدّثتُ نفسي أنّ تلك الفتاةِ لا يسهلُ خداعها حتّى شككتُ في أنّها كانت مطلّعة على كلّ شيء منذ البداية، لذا قلتُ لها:

- هل أمرُّ عليك وأقلّك معي؟

- ألن تلتحق بها؟

- بلى، ولكن معك أنتِ.

- أنا لا أريدُ الذهاب.

- أنت تدركينَ جيّدًا أنّك ستذهبين معي.

لم تجبني فاستأنفتُ حديثي:

- سيكونُ الأمرُ أسهل لو أخذتُك معي بالسيّارة.

- حسنًا، لماذا ستلتحق بها؟

- بالنهاية، علينا أن نخبرها.

- نخبرها بماذا؟

ضحكتُ بدوري، ثمّ قلتُ:

- سأخبرك بهذا اثناء الرّحلة، هيّا جهزّي حقيبتك وتعالي معي.

- أين سأنتظرك؟

- سأغادرُ الآن، سأكونَ أمام منزلك بعد ساعتين.

- بسيّارتك؟

- أجل. انتظريني في غرفتك. عندما أصلُ سأضربُ بوق السيّارة ثلاث مرّات.

- سوف أرى إن كنت ستفعل ذلك.

- إلى اللقاء.

لم أنتظر إجابتها وعلّقت سمّاعة الهاتف ثمّ أخرجتُ منديلي ومسحتُ جبيني. خرجتُ بعد ذلك من المقصورة، ودفعتُ ثمن المكالمة ثمّ غادرتُ إلى منزلي. كانت كلّ أغراضي جاهزة في السيّارة وكلّ أموالي معي. ثمّ كتبتُ رسالة إلى الشركة شرحتُ فيها أني اضطررتُ إلى المغادرة على جناح السرعة لرؤية أخي المريض. أعرفُ أنّ «توم» سيغفرُ لي تلك الكذبة. في الواقع، لم أكن أدري إلى أينَ سأصلُ بوظيفةِ بائع الكتب تلك، لا سيّما أنّه لم يسبق لي أن قطعتُ صلتي بأيّ شيء تركتهُ خلفي. وإلى حدود تلك اللحظة، كان بإمكاني أن أعيشَ حياةً لا مشاكلَ فيها، ودونَ ذرّةِ خوفٍ على الإطلاقِ، ولكن ما إن بدأت تلك الرّغبة في الإجهازِ على بنتيْ آل «آسكيث» تستحوذُ على تفكيري، حتّى اضطربت حياتي، إلى حدٍّ تمنّيتُ فيهِ لو أنّي كنتُ في تلك اللحظةِ مع الفتاتينِ في ذلك المكان الذي اخترتهُ، وأجهز عليهما ثمّ أمرُّ إلى شيء آخر. لطالما كنتُ لا أحتملُ فكرة عدم إنهاء أيِّ عملٍ أقومُ به، وذلكَ الإحساسُ تحديدًا هو ما كنتُ أشعرُ بهِ حيال تلك الخطّةِ التي وضعتها.

تطلعتُ حولي داخل الشقّة كي أتأكّد من أنني لم أنس شيئًا ثمّ أخذتُ قبّعتي. بعد ذلك، خرجتُ وأغلقتُ الباب لكنّي احتفظتُ بالمفتاح. كانت سيّارتي «الناش» تنتظرني على بعد مربّع سكني بعيدًا. قمتُ بتشغيل المحرّك وانطلقتُ. وما إن خرجتُ من المدينة، حتّى ضغطتُ بقوّة على دوّاسة السّرعة وتركتُ السيّارة تجري.

(18)

كانت الطريقُ السّريعةُ غارقة في الظلام اللّعين، ولحسن حظّي، لم تكن مزدحمة. لم أرَ سوى شاحناتٍ كبيرة تجري في الاتجاهِ المعاكسِ، فيما خلت وجهتي إلى الجنوبِ من السيّارات تقريبًا. تركتُ سيّارتي تجري بأقصى سرعتها، ومحرّكها يشخر كما لو أنّهُ محرّك جرّار. وعلى الرّغمِ من أنّ عدّاد السرعة أشارَ إلى مائتي ميل في السّاعة، إلاّ أنّي ضغطتُ على الدوّاسة بقوّة، ومع ذلك لم تخذلني سيّارتي.

كلُّ ما كنتُ أرغبُ فيه هو أن تهدأ أعصابي. وبعد مرور حوالي السّاعة على تلك اللحظة التي شعرتُ فيها بالتوتّر، شعرتُ بأنيّ أفضل حالاً، فأبطأتُ من سرعة السيّارة إلى حدٍّ سمعتُ معه صريرًا ينبعثُ من هيكلها.

شعرتُ ببرودةِ الليلِ ورطوبته، وبدا لي أنّ الطقس يعلنُ عن حلول فصل الشتاء، ولكنّي كنتُ قد نسيتُ معطفي في حقيبتي. يا الله، أنا لا أتذكّرُ متى شعرتُ بالدفء آخر مرّة. رحتُ أراقبُ اللافتات الإرشاديّة، رغمَ أنّ الطريق لم تكن صعبة، ومن حينٍ لآخر، كنتُ أرى محطّة للتزوّد بالوقود ثمّ ثلاثةَ أكواخٍ أو أربعة، وبعدها الطريقُ

المقفرةُ مجدّدا. وأحيانًا، أشاهدُ حيوانًا بريًّا يعبرُ الطريق، أو صفًا من الأشجار، أو لا شيء على الإطلاق.

فكّرتُ أنّهُ يلزمني ساعتان لأطوي المائة ميل التي تفصلني عن «بريكسفيل». في الواقع، كانت المسافة تقدّر بمائة وثمانية أو مائة وتسعة ميلاً، دون احتساب الوقت الذي أضعتهُ في الخروج من «بوكتن» أو في الالتفاف حول حديقة آل «آسكيث» عندما أصلُ إلى هنالك. لقد بلغتُ منزل «لو» في ساعة ونصف أو أكثر قليلاً، بعد أن أخذتُ من السيّارة كلّ ما كان بوسعها أن تقدّمه لي. عندما وصلتُ، فكّرتُ في أنّ «لو» جهّزت نفسها على الأرجح، لذا أبطأتُ من سرعة السيّارة كي أتجاوز البوّابة واقتربتُ أكثر ما يمكنُ من المنزل ثمّ ضربتُ بوق السيّارة ثلاث مرّات. لم أسمع شيئًا أوّل الأمر، ولم أستطع رؤية نافذتها من موقعي ذاك، لكنّي لم أجرؤ على النّزول أو ضرب بوق السيّارة مرّة أخرى خوفًا من أن أوقظ أحدهم.

بقيتُ في السيّارة منتظرًا واكتشفتُ أنّ يديّ ترتجفان في اللحظة التي أشعلتُ فيها سيجارة لتهدئة أعصابي. رميتها بعد دقيقتين وترددتُ كثيرًا قبل أن أعاودَ ضربَ بوق السيّارة ثلاث مرّات. عندئذٍ، وفيما تهيّأتُ للنزول من السيّارة، حدستُ أنّها قادمة، وما إن استدرتُ حتّى رأيتها تقتربُ منّي.

كانت ترتدي معطفًا خفيفًا، بلا قبّعة تعتمرها فوق رأسها، وتحملُ في يدها حقيبة يد ضخمة من الجلد البنّي بدت وكأنها ستسقطُ من يدها. كان هذا كلّ ما كانت تحملهُ من أمتعة. بعد أن

صعدت إلى السيّارة، جلست إلى جانبي دون أن تقول كلمة. ملتُ فوقها كي أغلقَ الباب الذي يحاذي مقعدها، لكني لم أحاول تقبيلها، إذ أنّها بدت لي باردة مثل باب خزانة حديدية.

انطلقتُ بالسّيارة وانعطفتُ حول الحديقة كي أصل إلى الطريق السّريعة فيما راحت هي تحدّقُ أمامها في الطريق. نظرتُ إليها بطرف عيني وفكّرتُ أنّهُ ما إن نكون خارج المدينة، ستتغيّرُ الأمورُ نحو الأفضل. قطعتُ مائة ميل أخرى بأقصى سرعة. ثمّ شعرتُ بأننا لم نعد بعيديْن كثيرًا عن الجنوب، إذ أن الهواء صارَ أكثر جفافًا والليل أقلّ عتمة، ومع ذلك، كان ما يزالُ أمامي خمسمائة ميل أو ستمائة كي نبلغ المكان.

لم أطق صبرًا على الجلوس إلى جانب «لو» دونَ أن أكلّمها، لاسيّما مع رائحة عطرها التي تملأ السيّارة. على نحوٍ مّا، كان وجودها إلى جانبي يثيرني بقوّة لاسيّما وقد عادت إلى مخيّلتي ذكرى تلك الليلة التي رأيتها فيها واقفة في غرفتها بسروالها الداخلّي الممزّق وعينيها اللتين تشبهان عيني قطّ. تنهّدتُ بعمقٍ كي تلاحظَ ذلك، وبدا لي كأنّها أفاقت من غفوتها، وأخذت تعود إلى الحياة، على نحوٍ مّا، وأنا أحاولُ أن أخلق جوًّا أكثر ودًّا، وقد أزعجني برودها. لذا سألتها:

- هل تشعرين بالبرد؟

- لا.

ثمّ أخذت ترتجفُ الأمر الذي عكّر مزاجها أكثر. لقد اعتقدتُ أوّل الأمرِ أنّها تمثّلُ دور المرأة التي تشعرُ بالغيرة، لكنّي كنتُ مشغولاً

بالقيادة ولم يكن في مقدوري معالجةُ هذا الموقف، حتّى بالكلام، خصوصًا وهي تصرُّ على صمتها. ثمّ أمسكتُ المقود بيدي اليسرى وأخذت بالأخرى أفتّشُ في درج السيّارة، قبل أن أخرج قارورة «ويسكي» وأضعها على ركبتيها. كان هنالك أيضا كوبٌ من الباكيليت[1] في الدّرج. أخرجتهُ ووضعتهُ قرب القارورة ثمّ أغلقتُ الدّرجَ وأدرتُ زرّ المذياع. لقد كان عليّ أن أفعل ذلك منذ البدء، ولكنّ ما شعرتُ بهِ من انزعاجٍ هو ما حالَ دون ذلك بالتأكيد. زدْ على ذلك أنّ ما كان يزعجني حقًّا هو أنّي لم أنجز بعدُ كلّ ما خططتُ له.

لحسن الحظّ، أخذتْ القارورة وفتحتها ثمّ صبّت لنفسها كأسًا وأفرغتها في جوفها دفعة واحدة. مددتُ يدي لأتناول القارورة منها لكنّها ملأت الكأس مرّة أخرى وشربتها. عندئذٍ فقط، ملأت لي كأسًا. لم أشعرُ بمذاقِ ما شربتهُ وأعطيتها الكأس. أعادت كلّ شيء إلى الدّرج ثم استرخت قليلاً فوق مقعدها قبل أن تفكّ زرّي معطفها. كانت ترتدي بذلة، مكوّنة من تنوّرة قصيرة وسترة بياقتين طويلتين. بعد ذلك، قامت بفتح سترتها أيضًا. كانت ترتدي تحتها صدارًا ليمونيّ اللون، مباشرةً على اللحم. ما إن رأيتُ ذلك حتّى ألزمتُ نفسي بالنّظر إلى الطريق، لئلاّ أرتكبَ حادثًا.

بدت الرّائحة داخل السيارة مزيجًا من العطر والكحول ودخان السجائر، مزيجا قويّا جعل رأسي يدور، ومع ذلك تركتُ بلّور النافذة

---

(1) نوع من اللدائن المضادة للتصلّب الحراري. اشتهرت المنتجات المصنوعة من الباكيليت خلال النصف الأول من القرن العشرين نظرًا لمقاومتها العالية للكهرباء وللحرارة.

مغلقًا. لقد دام صمتنا نصف ساعة أخرى قبل أن تفتحَ الدّرج وتصبّ لنفسها كأسين. وإذ شعرت بالدفء، قامت بخلع معطفها. في تلك الحركة التي قامت بها وهي تقتربُ مني، ملتُ قليلاً وقبّلتُ عنقها، تحتَ أذنها تحديدًا. وما إن فعلتُ ذلك، حتى ابتعدت عنّي، على نحو مباغتٍ، ثمّ استدارت ونظرت إليّ قبل أن تنفجر ضحكا. فخمّنتُ أنّ «الويسكي» أثّر فيها. بعد ذلك، قدتُ السّيارة نحو خمسين ميلا أخرى دون أن أنبس ببنت شفة ثم قرّرتُ أخيرًا أن أبادرها بالحديث، بعد أن شربت كأسا أخرى.

- هل تشعرين بشيء؟

ردّت بتمهّلٍ:

- أنا بخير.

- ألا ترغبين في الخروج مع صديقك القديم «أندرسون»؟

- أوه، لا مانع عندي!

- ألا تودّين رؤية أختك العزيزة؟

- لا تحدّثني عن أختي.

- إنّها فتاة لطيفة.

- أجل، وجيّدة في المضاجعة، أليس كذلك؟

أصابتني جملتها بالذّهولِ، فلو أنّ واحدة من الفتيات، كـ«جودي» أو «جيكي» أو «بيجي»، قالت لي ذلك لما انتبهتُ، ولكن ليس «لو».

حينَ لاحظت صدمتي، انفجرت ضحكا حتى كادت تختنق، ولم يكن صعبًا تخمينُ أنّها سكرت فعلاً، ثمّ ما لبثت أن قالت:

- ألستَ تقولها على ذلك النّحو؟

قلتُ موافقًا:

- أجل. على ذلك النحوِ تمامًا.

- أليس هذا ما تفعلهُ هي؟

- لا أعرف.

لكنّها ضحكتْ مجدّدًا قبل أن تقول:

- لا تزعج نفسك يا «أندرسن»، فأنا كبيرة كفاية لئلّا أصدّق أنّ امرأة حبلتْ لأنّ أحدهم قبّلها من فمها.

- من ذكر شيئًا عن الجنين؟

- «جين» تحملُ جنينًا.

- هل تعانينَ من مرضٍ ما؟

- صدقني يا «أندرسن»، لا داعي لأن تستمرّ في الكذب، فأنا أعرفُ كلّ شيء.

- أنا لم أنم مع أختك.

- بلى، لقد فعلت.

- لم أفعل، وحتى لو فعلتُ ذلك، فإنّها لا تنتظرُ طفلاً.

- قل لي، لماذا هي مريضة طوال الوقت؟

- لقد كانت مريضة في منزل «جيكي»، ومع ذلك، لم تحمل منّي. أختك لديها معدة هشّة.

- ماذا عن باقي جسدها؟ هل هو هشٌّ أيضا؟

ثمّ شرعت فجأة في تسديد وابلٍ من اللكمات نحوي. خفضتُ رأسي بين كتفيّ وضغطتُ على دوّاسة السّرعة. لقد كانت تضربني بكلّ قواها، وعلى الرّغم من ضعف لكماتها، إلاّ أنيّ شعرتُ بها. لم تكن تملكُ عضلات قويّة، ولكنّها تستمدُّ قوّتها من غضبها، وتدريبها الجيّد في لعبة التنس. عندما توّقفت عن لكمي، شرع جسدي في الارتجافِ غضبًا، لكنّي قلتُ لها:

- هل تشعرين بتحسّنٍ الآن؟

- أنا في حالٍ جيّدة. ولكن ماذا عن «جين»، هل شعرتْ أنّها في أفضل حالٍ بعد ذلك؟

- بعد ماذا؟

- بعد أن ضاجعتها.

لا شكّ أنّها تشعرُ بمتعة كبيرة عندما تردّدُ هذه الكلمة. في تلك اللحظة، مرّرتُ أصابعي بين فخذيها، وكنتُ متأكدا أنيّ سأضطر إلى مسحها بعد ذلك. قلتُ لها متحدّثًا بضميرِ الغائب:

- أوه. إنّها ليست المرّة الأولى التي يسيلُ فيها ماؤها مثل شلاّل.

- أنت كاذبٌ حقير يا «لي اندرسون».

ومرّة أخرى تلقيت سيلاً من اللكمات. ثمّ أخذت تلهثُ بعد الجهد الذي بذلتهُ وهي تحدّق في الطريق.

لكني أجبتها قائلاً:

- أعتقدُ أنّي أفضّلُ أن أضاجعك. أحبُّ حقّا رائحة عطرك كما أنّهُ لديك الكثير من الشعرِ تحت بطنك. لكن «جين» تضاجعُ جيّدًا، والحقّ أنّي سأفتقدُ ذلك عندما نتخلّص منها.

بقيت على جمودها، وبدا لي أنّها استقبلت جملتي ببرود. أمّا أنا فشعرتُ بضيق في حلقي، وكما لو أنّ ذهني أشرقَ بفكرة مباغتة، أدركتُ في تلك اللّحظة بالذات ما كانت تشعرُ به، لا سيّما وهي تقولُ بصوتٍ هامسٍ:

-هل سنفعلُ ذلك الآن، أم فيما بعد؟

وجدت صعوبة في الكلامِ وأنا أردّ عليها قائلاً:

- نفعلُ ماذا؟

- هل ستضاجعني...؟، قالت بصوتٍ خفيضٍ.

لم أسمع ما قالتهُ حقّا على الرّغم من أنّي فهمتُ ما تريد قوله، وشعرتُ بأنّي مستثارٌ مثل ثورٍ حتّى كاد انتصاب عضوي يؤلمني. ومع ذلك أجبتها:

- ليس قبل أن نتخلّص منها.

قلتُ لها ذلك كي أتأكّدَ إلى أيّ حدٍّ هي مغرمة بي، إلاّ أنّها ردّت:

- لا أريدُ ذلك.

- أنتِ تهتمّين كثيرًا لأمرها، أليس كذلك؟ هل تراجعتِ عمّا اتفقنا عليه؟

- لا، ليس هذا، ولكنّي لا أحبّ الانتظار.

لحسن حظّي، لمحتُ محطّة وقود وأوقفتُ السيّارة. كان عليّ أن أفكّر في شيء آخر لئلاّ أفقد أعصابي. بقيتُ جالسًا وراء المقود وطلبتُ من الرّجل أن يملأ الخزّان. أدارت «لو» مقبض الباب ثمّ قفزت من السيّارة. همستْ بشيء ما فأشارَ الرّجلُ بيدهِ نحو كوخ. هُرعت إليه واختفت داخله لتعود بعد عشر دقائق. في الأثناء، انتهزتُ فرصة غيابها ونفختُ عجلة بدت ليّنة قليلاً ثمّ طلبت من الرّجل أن يحضر لي شطيرة لم أستطع تناولها.

عندما عادت «لو» إلى مقعدها، نقدتُ الرّجل ثمن الوقود، ثمّ رأيتهُ يعودُ أدراجه إلى الكوخ كي ينام. بعد ذلك، شغّلتُ السيّارة وقدتها بأقصى سرعة لساعة أو ساعتين، لم تتحرّك «لو» خلالهما من مقعدها، حتّى إنّها بدت لي وكأنّها نائمة، حينئذٍ عاد إليّ هدوئي. فجأة، تمطّت «لو» وفتحت درجَ السيّارة وأخرجت زجاجة «الويسكي» وشربت ثلاثة كؤوس دفعة واحدة قبل أن تقوم بخلع سترتها.

رغمًا عنّي، أثارتني رؤيتها وهي تخلعُ سترتها، ومع أنّي حاولتُ أن أواصل قيادة السيّارة، إلاّ أنّي أوقفتها بعد عشرة أميال عند حافة

الطريق. كان الظلامُ ما يزالُ يلفُّ المكان، لكنّي استشعرتُ قدوم الفجرِ. لم يكن هنالك ريحٌ في ذلك المكان المقفر إلاّ من صفوف الأشجار والأجمات، فقد مرّت نصف ساعة تقريبًا على آخر مدينةٍ مررنا بها.

بعد أن رفعتُ فرامل اليد، أخذتُ الزجاجة وكرعتُ منها ثمّ طلبتُ من «لو» أن تنزل. فتحت لها الباب وأخذت حقيبتها ثمّ لحقتُ بها. توجّهنا ناحية الأشجار وتوقفنا حالما وصلنا إلى هنالك قبل أن تطلب منّي سيجارة، ولأنّي تركتُ العلبة في السيّارة، طلبتُ منها أن تنتظرني، فيما أخذت هي تفتّش في حقيبتها بحثًا عن واحدة لكني كنتُ قد عدتُ أدراجي ركضا نحو السيّارة. أخذتُ علبة السّجائر ومعها زجاجة «الويسكي» التي كانت فارغة تقريبًا، لكن كان لديّ المزيدُ منها في صندوق السيّارة.

عندما عدتُ ناحية الأشجارَ، وجدتُ بعض الصعوبة في المشي، ومع ذلك شرعتُ في خلع ملابسي حتّى قبل أن أصل إليها. فجأة، رأيتُ وميض رصاصة انطلقت من مسدّسٍ، وفي تلك اللحظة بالذات، شعرتُ كأنّ مرفقي الأيسر قد انفجر، وسقطت ذراعي إلى جانبي، فيما رحتُ أحدّثُ نفسي بأنّي لو لم أكن منهمكًا في خلع ملابسي لكنتُ تلقيّتُ الرصاصة في صدري.

لقد عبر كلّ ذلك ذهني في ثانية. وفي الثانية الموالية جثمتُ فوقها قبل أن ألوي معصمها وأوّجه لكمة إلى صدغها بكلّ قوّتي، لأنّها حاولت عضّي. لقد كنتُ في وضعٍ سيّء والألمُ الذي أشعرُ بهِ لا

يطاق. ومع ذلك، ما إن تلقّت لكمتي حتّى همدت على الأرض دون حراك. ولكنّ ذلك لم يكن لينهي ما خططتُ له بعد. التقطتُ المسدّس ووضعتهُ في جيبي. كان مسدسا من عيار 6.35 ملم، من نفس طراز مسّدسي، لكنّ العاهرة عرفت كيف تصوّب بدقّة. ثمّ أمسكتُ ذراعي اليسرى بيدي اليمنى. لا شكّ أنّ قسمات وجهي في تلك اللحظة بدت شبيهة بقناعٍ صينّي، لكنّ ما شعرتُ بهِ من غضبٍ غطّى على ألمي. ذهبتُ بعد ذلك إلى السّيارة وعثرتُ على قطعة الحبل التيّ بحثتُ عنها ثمّ عدتُ أدراجي، واكتشفتُ أنّ «لو» بدأت تتحرّكُ في مكانها. لقد عانيتُ ألما ممضّا وأنا ألفّ الحبل على ذراعيها وأشدّهما بيدٍ واحدة، وعندما انتهيتُ من ذلك، شرعتُ في صفعها قبل أن أنتزعَ تنورتها وأمزّقَ صدارها ثمّ عدتُ إلى صفعها مجدّدًا. لقد اضطررتُ إلى تثبيتها بِوضع ركبتي فوقها وأنا أحاولُ نزع صدارها اللّعين لكنّي لم أنجح سوى في تمزيقه من الأمام. وإذْ بدأ ضوء النّهارِ يلوح في الجهة الغربيّة من السّماء، إلاّ أنّ جزءًا من جسدها بقي في ظلّ الشجرة الداكن.

في تلك اللحظة، حاولت أن تتكلّم لتقول لي إنّي لن أتمكّن منها وأنّها هاتفت «ديكس» قبل قليل ليخطرَ الشرطة وأنّها اعتقدت أنّي وحشٌ شنيعٌ منذ أن تكلّمتُ عن التخلّص من أختها. ضحكتُ لكنّها ردّت بابتسامة مماثلة فعاجلتها بلكمة على فكّها، فيما بدا لي صدرها باردًا وقاسيًا. سألتها عن سبب إطلاقها النّارَ عليّ، وأنا أحاولُ تمالك نفسي، فقالت إنّيَ زنجيٌّ قذر، وأنّ «ديكستر» هو من أخبرها بهذا، وأنّها قدمت معي لتحذير «جين»، قبل أن تضيف قائلة إنّها تكرهني كما لم تكره إنسانًا من قبل.

ضحكتُ مجدّدًا، فيما أخذ قلبي يدقُّ داخل صدري مثل مطرقة حدّاد، ويداي ترتجفان بينما تنزفُ ذراعي اليسرى بقوّة، حتى شعرتُ بالدّمِ ينثالُ على ساعدي.

عندئذٍ أخبرتها أنّ البيضَ قتلوا أخي وأنهم لن يتمكنوا منّي بسهولة أمّا هي، ففي كلّ الأحوال، سينتهي بها الأمرُ قتيلة ثمّ اعتصرتُ أحد نهديها بيدي حتّى كاد يغمى عليها، لكنّها لم تصرخ. ثمّ أخذتُ أصفعها مجدّدا بكلّ ما أوتيتُ من جهد. فتحت عينيها مرّة أخرى. كان النهارُ قد طلع، وعلى ضوئهِ، رأيتها تلتمعانِ دموعا وغضبا، فملتُ فوقها. أظنّ أنّي كنتُ أتشمّمها مثل حيوانٍ بريّ ثمّ بدأتْ في الصرّاخ. حينئذٍ، قمتُ بعضّها مباشرةً بين فخذيها، وامتلأ فمي بشعر عانتها الأسود والقاسي. بعد ذلك، فتحتُ فكّي ثمّ أطبقتهُ مجدّدًا، ولكن أسفل قليلاً، في المكان الأكثرِ نعومة.

كنتُ أسبحُ في رائحة عطرها، تلك الرّائحة التي وجدتها هنالك أيضا، ثمّ شددتُ على أسناني. حاولتُ أن أضع يدي على فمها لكنّها كانت تصرخُ مثل خنزير، صراخٌ يجمّدُ الدماء في العروق. عندئذٍ شددتُ على أسناني بكلّ ما أوتيتُ من قوّة ومزّقتُ لحمها. شعرتُ بالدماء تطفرُ في وجهي بينما يتلوّى جسدها على الرغم من الحبل الذي يشدّهُ. كانت الدماءُ تملأ وجهي فتراجعتُ قليلاً زاحفًا على ركبتيّ. لم يسبق لي مطلقًا أن سمعتُ امرأة تصرخُ على ذلك النحوِ، قبل أن أكتشف أنّي قذفتُ في سروالي الداخليّ. لقد كانت تلك المرّة الأولى في حياتي التي أشعرُ فيها بإثارةٍ قويّة كتلك، ومع ذلك شعرتُ بالخوفِ في تلك اللّحظة، من قدومِ أحدٍ مّا إلى المكان. فأشعلتُ

عود ثقاب لأرى أنّها كانت تنزفُ بشدّة. بعد ذلك، أخذتُ ألكمها بقبضتي اليمنى أوّلا، مباشرة في فكّها. ومع أنّي شعرتُ بأنّ أسنانها تتكسّر تحت لكماتي لكنّي واصلتُ، لاسيّما أنّي أردتُها أن تتوقّف عن الصراخ. ضربتها بأكثر قوّة ثمّ التقطتُ تنورتها ووضعتها في فمها قبل أن أجلس فوق رأسها، حتّى أخذت تتلوّى مثل دودةٍ. لم أكن أتوقّع أن يكون تمسّكها بالحياة قوّيا إلى ذلك الحدّ، خصوصا وهي تهتزّ تحتي بعنفٍ حتى ظننتُ أنّ ساعدي الأيسر انفصل عن جسدي. في تلك اللّحظةِ، اجتاحني غضب عنيف إلى حدّ شعرتُ معه بالرّغبةِ في سلخها حيّة. حينئذٍ اعتدلتُ واقفًا كي أنهي حياتها بركلاتٍ من قدميّ، ثمّ وضعتُ قدمي على حلقها وضغطتُ بكلّ قوّتي. وعندما همدت أخيرًا، شعرتُ أنّي قذفتُ مرّة أخرى في سروالي الداخلّي، فيما راحت ركبتاي ترتعشان حتّى خفتُ أن أفقد وعيي في تلك اللّحظة.

(19)

لقد كانَ عليّ أن أذهب للبحث عن المجرفة والفأس لكي أدفنها هنالك، لكنّي شعرتُ بالخوفِ من رجال الشرطة، إذ أنّي لم أرد أن يقبضوا عليّ قبل أن أنهي حياة «جين». لقد شعرتُ أن الصبي هو من يرشدُ خطاي في تلك اللّحظة، فركعتُ أمام جثّة «لو» وقمتُ بفكّ الحبل الذي يشدُّ يديها، ورأيتُ كيفَ ترك آثارًا عميقة على معصميها. كما شعرتُ بليونةِ جسدها ودفئهِ، كحالِ جثامين الموتى لحظات قليلة بعد موتهم، فيما فقد نهداها صلابتهما. لم أزح التنورة عن وجهها، لأنّي لم أرغب في رؤيتهِ مرّة أخرى، ومع ذلك أخذتُ ساعتها لأنّي أردتُ الاحتفاظ بشيء منها.

فجأة، فكّرتُ فيما يمكنُ أن تبدو عليه قسمات وجهي في تلك اللحظاتِ وعدتُ ركضًا إلى السيّارة. عندما نظرتُ إلى وجهي في المرآة الخلفيّة اكتشفتُ أنّه لا يوجدُ ما يستدعي القلقَ، فغسلتُ وجهي بقليل من الويسكي. في الاثناء، توقّفَ نزيف ذراعي وتمكنّتُ من إخراجها من كمّي ثمّ قمتُ بتثبيتها فوق صدري مستخدمًا وشاحي ومعهُ الحبل. لقد كدتُ أصرخُ والألمُ يمزّقني عندما قمتُ

بثنيها. ورغم الألم، تمكّنتُ من ذلك، خصوصًا بعد أن أخرجتُ من صندوق السيّارة زجاجة «ويسكي» ثانية. فكّرتُ في أنّي أضعتُ الكثير من الوقت خاصة أن الشمس أشرقت عند الأفق تقريبًا. حينئذٍ، أخذتُ معطف «لو» من السيّارة وألقيتهُ فوقها، لأنّي لم أكن أريد أن أتجوّل في الأنحاء، ومعطفها في سيّارتي. بعد أن أنهيتُ ذلك، شعرتُ بأنّ قدمّي لا تقويانِ على حملي، لكنّ يديّ غادرتهما رعشتهما.

اتخذتُ مكاني وراء عجلة القيادة وشغّلتُ السيّارة، وقد تساءلتُ عمّا يمكنُ أن تكون قد قالته لـ «ديكس»، كما أنّ ما روتهُ عن إخطار «ديكس» لرجال الشرطة أزعجني حقًا، ومع ذلك لم أرهق نفسي بالتفكيرِ في ذلك، على الرّغم من أنّ قصّة رجال الشرطة بقيت تتردّدُ في لا وعيي مثل صدى.

لقد كنتُ أريدُ أن أرى «جين» في تلك اللحظة وأن أحسَّ بما شعرتُ به مرّتين وأنا أحطّمُ جسد أختها، لاسيّما بعد أن عثرتُ على تلك النشوةِ التي طالما حلمتُ بها. ومع ذلك، أزعجني التفكيرُ في رجال الشرطة، على نحوٍ آخر تمامًا، رغم أنّي أعرفُ أنهم لن يتمكنوا من منعي من تنفيذ ما أردتُ، زد على ذلك أنّي أسبقهم بمسافة لا بأس بها وسيكون عليهم أن يلهثوا خلفي كثيرًا قبل أن يتمكنوا من الإمساكِ بي. بقي أمامي أقلّ من ثلاثمائة ميلٍ لأقطعها. وعلى الرغمِ من إحساسي بأنّ ذراعي اليسرى مخدّرة تقريبًا، واصلتُ الضغطَ على دوّاسة السرعة في ما تبقّى من الطريق.

(20)

ثمة أشياءٌ كثيرة بدأتُ أتذكّرها قبل ساعة من وصولي إلى النزل. تذكرتُ يومَ أمسكتُ غيتارًا للمرّة الأولى. حدث ذلك في منزل أحد الأجوار الذي كان يقدّم لي بعض الدروس خفيةً. كنتُ قد تدرّبتُ على أداء أغنية وحيدة، هي «عندما يسيرُ القدّيسون»[1]، ثمّ تعلّمتُ كيف أعزف كلّ مقاطعها وأغنيّها في نفس الوقت.

وفي إحدى الامسيات، قمتُ باستعارة غيتار جارنا كي أفاجئ أهلي في المنزل. أخذ «توم» يغنّي معي، أمّا الصبيّ فأخذ يتصرّف كالمجنون، وهو يرقصُ حول الطاولة كما لو كان يقود موكبًا، ثمّ أخذ عصا وطفق يرسمُ دوائر في الهواء. في تلك اللحظة، دخل أبي وعندما رآنا ضحكَ ثمّ أخذ يغنّي معنا. صحيحٌ أنّي أعدتُ الغيتار إلى جارنا ولكنّي وجدتُ واحدًا على سريري في اليوم الموالي. كان غيتارًا قديمًا ولكنّه في حال جيّدة، فرحتُ أتدرّبُ عليه قليلاً كلّ يوم. إنّ الغيتار آلة تجعلُ المرء كسولاً، إذ أنّي كنتُ أمسكهُ وأعزفُ عليهِ لحنًا وبعد

(1) عندما يسيرُ القدّيسون أو When The Saints Go Marching'in: أغنية تنتمي إلى التراث السود الأمريكيين وهي مستوحاة من موسيقى «الفولك». يعود زمن تأليفها إلى العام 1892. وهي الآن تعتبرُ من كلاسيكيات موسيقى «الجاز».

ذلك أتركهُ. قد أتكاسلُ أحيانًا لكنّي أعودُ فأمسكهُ ثانيةً، لأعزفَ نغمة أو اثنتين أو ليرافقني عندما أصفّرُ لحنًا ما، إلى أن مرّت الأيّامُ سريعا على ذلك النّحو.

أفقتُ من شرودي فجأة عندما اصطدمت السيّارة بمطبّ على الطريق. أظنُّ أنّي غفوتُ كما فقدتُ الإحساس بذراعي تمامًا وشعرتُ بعطش شديدٍ. حاولتُ أن أفكّر مرّة أخرى في تلك الأيّام الخوالي فقط كي أصرف أفكاري لأنيّ كنتُ أتعجّلُ الوصول، وما إن فكّرتُ في ذلك حتّى شرع قلبي يدقّ بين أضلعي بينما ارتجفت يدي اليمنى فوق المقود. لقد كنتُ أعاني الكثير من المشاكل وأنا أقودُ بيدٍ واحدة. تساءلتُ عمّا يفعلهُ «توم» في تلك اللحظة، ربّما كان يصلّي أو يعلّمُ الأطفال درسًا مّا في المدرسة. ومن «توم»، سافرت أفكاري إلى «كليم» ثمّ إلى مدينة «بوكتون» التي قضيتُ فيها ثلاثة أشهر أشتغلُ مديرًا لمكتبة كنتُ أكسبُ منها جيّدًا.

تذكّرتُ «جيكي» وتلك المرّة التي ضاجعتها فيها تحت الماء وكم كانت مياهُ النهر صافية يومها. عندما تذكرتُ «جيكي» الصغيرة جدّا، الناعمة والعارية مثل رضيع، عادت «لو» إلى ذاكرتي على نحوٍ مباغتٍ ومعها شعرُ عانتها الأسود، السميك والمجعّد، وذاك المذاق الذي شعرتُ به في فمي عندما عضضتهُ، مذاقٌ لطيف، مالحٌ قليلا ودافئ، ناهيك عن رائحة العطر التي تنضحُ من فخذيها، ومرّة أخرى سمعتُ صرخاتها تدوّي في أذني، حتّى شعرتُ بالعرق يتصبّب على جبيني ولم أستطع ترك المقود اللعين كي أمسحهُ.

أحسستُ أنّ معدتي امتلأت بالغازات وأنّها تضغطُ على حجابي الحاجز وتسحقُ رئتيّ بينما «لو» تصرخُ في أذنيّ. تمكّنت أصابعي من بلوغ زرّي منبّه السيّارة، فوق عجلة القيادة. ثمةّ زرّانِ للتنبيه، واحد أستخدمهُ للطرّيق، على شكل جرس من الإبونيت[1]، والثاني، أسود اللون يتوسّط عجلة القيادة استخدمهُ عادة وسط المدينة. ثمّ سحقتُ الزرّين معًا كي أحجب صراخ «لو».

يبدو أنّي قدتُ السيّارة لخمسٍ وثمانين ميلاً تقريبًا. لقد قدّمت السيّارة كلّ ما لديها لكنّ الطريقَ بدأت في الانحدار قليلاً ورأيتُ أن مؤّشر السرعة كسبَ هامشًا بميلين، فثلاثة ثمّ أربعة أميال إضافية. كانت الشمسُ تتوسّط كبد السّماء منذ وقتٍ طويل. ثمة سيارات بدأت تعترضني الآن من الجهة المقابلة، وتجاوزتُ بعضا منها في اتجاهي. بعد بضع دقائق، أفلتّ زرّي المنبّه، تحسبًّا من أن يعترضني رجال الشرطة، فوق درّاجاتهم النارّية، ناهيك أنّ سيّارتي لم تكن سريعةً إلى حدّ يجعلني أفلت منهم لو طاردوني. حدّثتُ نفسي حينئذٍ بأنّي عندما أصل إلى هنالك، سآخذُ سيّارة «جين» ولكن، يا الله، متى سأصلُ إلى هنالك...

أعتقدُ أني شرعتُ في الدمدمة داخل السيّارة. كنتُ أدمدم مثل خنزيرٍ، صارًّا على أسناني، كي تجري السيّارة بسرعة أكبر، ثمّ دخلتُ منعطفًا دون أن أبطئ من سرعتي، لتصدر إطارات السيّارة صريرًا مخيفًا. كانت سيّارتي «الناش» تجري بعنف، لكنها عادت إلى

(1) الإبونيت: مطّاط صلد مقسّى بالكبريت.

ثباتها بعد أن كادت تنحرفُ إلى يسار الطريق، واصلتُ الضغط على دوّاسة السرعة، لأبدأ الآن في الضحكِ وقد شعرتُ بالسعادة تماما مثل الصبيّ عندما كان يرقصُ حول الطاولة ويغنّي «عندما يسيرُ القدّيسون»، حتّى إنّي تقريبًا لم أعد أشعرُ بالخوفِ في تلك اللّحظات.

(21)

لقد عادت تلك الرّعشةُ اللعينة إلى يدّي، على نحوٍ مّا، عندما وصلتُ إلى الفندق. كانت الساعةُ تشيرُ إلى السّاعةِ الحادية عشر والنصف تقريبًا. لا شكّ أنّ «جين» تنتظرني لتتناول الإفطار مثلما قلتُ لها. فتحتُ باب السيّارة الأيمن ونزلتُ من تلك الجهة لأنّهُ مع الحالة التي كانت عليها ذراعي، بدا ذلك أسهل ما يمكن فعلهُ.

كان الفندقُ عبارة على بناية بيضاء، مبنيّة على الطراز المحلّي، مع شرفة أمامية ونوافذ مغلقة. في تلك البقعة، بدا الجوُّ مشمسًا رغم اقترابنا من نهاية شهر أكتوبر. لم أجد أحدًا في بهو الفندق الذي كان بعيدًا عن الفخامة التي قدّمه بها الإعلانُ التجاري، ولكن بالنّظر إلى أنّهُ أقيم في مكانٍ مقفر، فلا أحد بإمكانهِ أن يطلب أفضل من ذلك.

قمتُ بعدّ دزّينة من المباني الأخرى بما في ذلك محطّة للوقود، هي حانة في الوقتِ نفسه، تقعُ بعيدًا عن الطريق، ومخصّصة بلا شكّ لسائقي الشاحنات الثقيلة. من بين الأشياء التي تذكّرتها، أنّ الأجنحة المخصصة للنوم كانت منفصلة عن الفندق وخمّنتُ أنّها تنتهي عند ذلك الدربِ الذي يتعامدُ مع الطريق الرئيسية. ثمّة أشجارٌ بائسة

تحيطُ بالدرب وأعشابٌ طفيليّة. تركتُ سيارتي «الناش» وذهبتُ ناحية الدرب. لم أنعطف كثيرًا لأجد سيّارة «جين» أمامي مباشرة متوقفة أمام كوخٍ من غرفتين نظيفتين إلى حدّ ما. دخلتُ الكوخ دون أن أقرع البابَ. فرأيتها تجلسُ على كرسيّ ذي مسندين وتبدو نائمة. لم تبدُ بحال جيّدة ولكنها ما تزالُ أنيقة. أردتُ أن أوقظها لكنّ الهاتف -كان هنالك هاتفٌ في الكوخ- رنَّ في تلك اللحظة. شعرتُ فجأة بالذعر وقفزتُ نحوهُ. عاد قلبي يدقّ بعنف. رفعتُ السّماعة وأغلقتها فورًا. كنتُ أعرفُ أنّ «ديكستر» هو الوحيد الذي باستطاعتهِ أن يهاتفها. «ديكس» أو رجال الشرطة أيضًا. فركت «جين» عينيها ثمّ نهضت من كرسّيها، وقبل أن أقوم بأيّ شيء آخر، قبّلتها بقوّة حتّى كادت تصرخ. بدت لي متنبّهة أكثر في تلك اللحظةِ، فأحطتُ خصرها بذراعي لكي أسحبها إلى الخارج. وما إن شاهدت كمّ سترتي الفارغ حتّى صرخت قائلة:

- ما الذي حدث يا «لي»؟

لقد بدت مذعورة، لكنّي ضحكتُ، ضحكتُ بشدّة، وأنا أجيبها:

- لا شيء. لقد سقطتُ مثل أحمق عندما نزلتُ من السيّارة وجرحتُ مرفقي.

- ولكنّك تنزفُ.

- لا تقلقي، إنّه خدشٌ بسيط. هيّا، تعالي يا «جين». لقد أرهقتني هذه الرحلة. ما أريدُه هو أن أكونَ بمفردي معك الآن.

في تلك اللحظة، رنّ الهاتفُ مجدّدا، وشعرتُ كما لو أنّ التيار

الكهربائي يمرُّ عبر جسدي أنا لا عبر الأسلاك. لم أستطع تمالك نفسي أكثرَ فأمسكتُ الجهاز وطرحتهُ على الأرض قبل أن أشرع في تحطيمه بضربات من كعبيْ حذائي. لقد شعرتُ فجأة كما لو أنّي كنتُ بصدد تحطيم وجه «لو» بحذائي. بعدها غمرني العرقُ مرّة أخرى وكدتُ أغادرُ المكان إلى الأبد. كنتُ أعرفُ أنّ شفتيّ ترتجفان وأنّي أبدو كالمجنون بلا شكّ.

لحسن الحظّ، لم تصرَّ «جين» على معرفة ما يحدث. كانت قد خرجت وطلبتُ منها أن تصعد إلى سيّارتها، لأننا سنذهبُ معًا في جولة بعيدة ونحظى بالقليل من الوقت لنا قبل أن نعود لتناول الإفطار. لقد تأخّر الوقتُ بالفعلِ على الإفطار لكنّها بدت ذاهلة. خمنتُ أنّها ما تزالُ مريضة بسبب الجنين الذي تحملهُ. اندفعت السيّارة ما إن ضغطتُ على دوّاسة السرعة، لتدفعَ بنا إلى الوراء فوق المقاعد. انتهى الأمرُ تقريبًا هذه المرّة. فقد كان يكفي أن أسمعَ صوت هذا المحرّك كي يعود إليّ هدوئي. قلتُ لـ «جين» شيئا ما كي أشرح لها أمر الهاتف، قبل أن تلاحظ أنّي انحرفتُ عن الطريق، لكنيّ قلتُ لنفسي إنّهُ قد حانَ الوقت كي أنهي الأمرَ برمتّهِ. بينما التصقتْ هي بي ووضعت رأسها فوق كتفي.

انتظرتُ عشرين ميلاً أخرى ثمّ بحثتُ عن مكانٍ أوقفُ فيه السيّارة. عثرتُ على موضعٍ كانت الطريقُ فيه مبنيّة فوق مرتفعٍ ترابيّ، عندئذٍ قلتُ لنفسي، سأنزلُ المنحدر ومن ثمة أقومُ بما جئتُ لأجلهِ. أوقفتُ السيّارة فنزلت «جين» قبلي. تحسّستُ مسدّس «لو» داخل

جيبي. لم أشأ استعماله على الفور، فحتّى لو كنتُ بذراعٍ واحدة، فإنّني أظلُّ قادرًا على إنهاء حياة «جين» أيضًا. وعندما انحنت كي تعيد ربط حذائها، لمحتُ فخذيها من تحت تنوّرتها القصيرة التي حشرا فيها بإحكام، حينئذٍ شعرتُ بجفافٍ في فمي. بعد ذلك، توقفت قريبًا من أجمة، هنالك حيثُ لا يمكنُ أن يرانا أحد من الطريق عندما نكونُ جالسين.

تمدّدت على الأرض وهنالك وطأتها على الفور، دون أن أترك نفسي أصلُ إلى حالة الانتشاء. حاولتُ أن أتماسك رغم هزّات خصرها اللعين، وتمكنتُ من أن أجعلها تصل إلى الذروة دونَ أن أصلَ أنا نفسي إلى ذلك. في تلك اللحظة، بادرتها بالحديث.

- هل ستشعرين دائمًا بنفس المتعة عندما تنامين مع رجال سود؟

لم تقل شيئًا. كانت تبدو مشلولة تماما. فاستأنفتُ حديثي.

- لأنّهُ فيما يخصّني، أكثرُ من ثُمُنِ دمائي هي دماءُ رجل أسود.

فتحت عينيها مرّة أخرى فضحكتُ. لم تفهم شيئًا مما يحدثُ حولها. عندئذٍ، رويتُ لها كلّ شيء، رويتُ لها قصة الصبيّ كاملةً، الصبيّ الذي وقع في حبّ فتاة وكيفَ اهتمّ والدها وشقيقها بأمرهِ فيما بعد. شرحتُ لها ما الذي أردتُ أن افعله بها هي و«لو»، كي أحظى بانتقامٍ مضاعفٍ. فتّشتُ في جيبي وعثرتُ على ساعة «لو» ثمّ أريتها إيّاها قبل أن أقول لها إنّي ندمتُ لأني لم أحضر لها إحدى عيني أختها، بعد أن تضرّرتا، على نحوٍ بالغٍ، لا سيّما مع تلك الطريقة الخاصة التي ابتكرتها للإجهازِ عليها.

لم يكن سهلاً أن أخبرها بكلّ ذلك، لا سيّما أنّ كلماتي كانت تخرجُ بصعوبة. لقد ظلّت هنالك، مستلقية على الأرض وعيناها مغمضتان، وتنورتها مرفوعة إلى بطنها. مرّة أخرى شعرتُ بذلك الإحساسِ الغريب الذي أشعرُ به قادمًا من ظهري، وأطبقتُ على عنقها بكلتا يدّي، عاجزًا عن كبح جماح نفسي إلى أن قذفتُ. لقد كان شعورًا قوّيا حتّى إنّي أفلتها وكدتُ أن أقف على قدميّ. رأيتُ كيف استحال لونُ وجهها إلى اللونِ الأزرق ومع ذلك لم تتحرّك من مكانها. لقد تركتني أخنقها دون أن تفعل شيئا. حين اقتربتُ منها، شعرتُ بأنّها ماتزالُ تتنفّسُ، أخرجتُ مسدّس «لو» من جيبي وأطلقتُ رصاصتين على رقبتها، من مسافة جدّ قريبة. انبثقت دماؤها ببطء على شكل فقاعات، في اندفاعات صغيرة متقطّعة، وهي تُصدر دويًّا مكتومًا. كلّ ما يراهُ المرء في عينيها هو خطّ أبيض تحتَ جفنيها ولا شيء آخر. فجأة اختلجت، وأظنُّ أنّها ماتت في تلك اللحظة. بعد ذلك، قلبتها على وجهها كي لا أراه مرّة أخرى. ثمّ قمتُ بمضاجعتها من الخلف مثلما فعلتُ معها في غرفتها، وجسدها ما يزالُ دافئًا.

أظنُّ أنّه أغمي عليّ على الفور بعد ذلك. وعندما استعدتُ وعيي، وجدتُها باردة جدّا واستحال عليّ تحريكها من مكانها، فتركتُها هنالك وعدتُ إلى السيّارة. لقد كنتُ أجرُّ نفسي بصعوبة بالغة، وقد أحسستُ بأشياء لامعة تبرق أمام عينيّ. عندما جلستُ وراء المقود، تذكرتُ أنّي تركتُ قوارير الويسكي في سيّارة «الناش»، وعند ذلك أخذت يداي ترتجفان مجدّدًا.

(22)

وضع الرّقيب «كوللوفس» غليونهُ على سطح المكتب وهو يقول:

- لن نتمكّنَ من إيقافه مطلقًا.

أجابهُ «كارتر» وهو يومئ برأسه:

- يمكننا أن نحاول.

- لا نستطيع إيقاف شخصٍ يجري بسرعة مائة ميل في الساعة، داخل سيّارة تزنُ ثمانمائة وخميس كيلوغرامًا، وبدرّاجتين فقط.

- مع ذلك، يمكننا أن نحاول. قد نكسرُ رقابنا ربّما، ولكن يمكننا أن نحاول.

حتى ذلك الحين، بقي «بارو» صامتًا، وهو رجل طويل، نحيلٌ، أسمر اللون، يبدو متكلّفًا عندما يتكلّم، قبل أن يقول:

- أنا مع المحاولة.

قالَ «كارتر»:

- حسنًا، دعنا نذهب.

تطلّع «كوللوفس» إليهما ثمّ قال:

- يا رفيقيّ، أنتما تخاطران بحياتكما، ولكن لو تمكنتما منهُ فكونا على ثقة أنكما ستحصلان على ترقية.

ردّ «كارتر»:

- على أيّة حال، لا يمكننا أن نترك زنجّيا لعينًا يضرم النّار في البلاد.

لم يردّ «كوللوفس» وأخذ ينظرُ إلى ساعته. قبل أن يقول:

- إنّها السّاعة الخامسة. لقد هاتفونا قبل عشر دقائق ليخبرونا بأنّه سيمّرُ من هنا بعد خمس دقائق... هذا إذا مرّ من هنا طبعًا.

- لقد أجهز على بنتين، قال «كارتر».

- وميكانيكيّ، أضاف «بارّو».

تفقّد «كوللوفس» سلاحهُ «الكولت» المثبّت على حزامهِ ثم توجّه نحو الباب وهو يقول:

- هناك شرطيّان يطاردانه بالفعل على درّاجتيهما. آخر تقريرٍ لدينا يقولُ، إنهما ما يزالان يلاحقانه. كما انضمتّ إليهما إحدى سيارات مقرّ قيادة شرطة في الولاية، ونحنُ بانتظارِ سيّارة أخرى أيضا.

قال «كارتر»:

- سيكونُ من الأفضل لو انطلقنا في الحال.

ثم وجّه كلامهُ إلى «بارّو»: هيّا اصعد ورائي. سنأخذُ درّاجة واحدة».

اعترض الرّقيبُ قائلاً:

- هذا مخالفٌ للّوائحِ.

فردّ عليه «كارتر»:

- إنّ «بارّو» يجيدُ التصويب. ولو أخذ كلّ منّا درّاجتهُ، فلن يكونَ بإمكاننا القيادة وإطلاق النّار في الوقتِ نفسه.

عندئذٍ قال «كوللوفس»:

- حسنًا، اِفعلا ما بدا لكما ولكنّي لن أتحمّل مسؤوليّة ذلك.

لتنطلق درّاجة «الآنديان»[1] في الحال، حتّى إنّ اندفاعتها القوّية كادت تطيحُ بـ«بارّو» الذي جلسَ في الخلفِ وظهرهُ يلاصقُ ظهر «كارتر»، بعد أن ربطا نفسيهما بحزامٍ جلديّ. ولم يلبث أن قال لـ«كارتر»:

- أبطئ السّرعة حالما تخرجُ من المدينة.

«هذا مخالفٌ للقوانين»، تمتم «كوللوفس» في اللحظةِ نفسها وهو يتطلّعُ إلى درّاجة «بارّو» المتوقّفة أمام المخفر بقنوط، ثمّ هزّ كتفيهِ ودخل إلى المخفر. لكنّه سرعانَ ما عاودَ الخروج ليرى مؤخّرة سيّارة

(1) درّاجة «الزعيم الهنديّ» أو «الآنديان شيف» (Indian Chief) هو طراز من الدرّاجات الناريّة الضخمة والقويّة بدأ تصنيعهُ في العام 1922.

«البويك» البيضاء الضخمة، التيّ عبرت الطريقَ للتوّ، وهي تختفي وقد تعالَى هديرُ محرّكها. بعد ذلك سمعَ صافرات الإنذار ورأى أربع درّاجات نارّية تطارد السيّارة- لقد كان هنالك أربعة منها إذن، حدّث نفسَهُ- ثمّ سيّارة شرطة وراءها مباشرةً.

« يا لها من طريق ملعونة»، غمغم «كوللوفس» مرّة أخرى. لكنّهُ بقي خارج المخفر، وهو يصيخُ سمعه إلى صوت صافرات الإنذار وهي تخفتُ رويدًا رويدًا فيما موكبُ المطاردة يبتعدُ.

(23)

أخذَ «لي» يمضغُ الفراغ بفكيّه، بينما تتنقّلُ يدهُ اليمنى بعصبيّة فوق عجلة القيادة وهو يضغط على دوّاسة السرعة بكلّ ثقلهِ. كانت عيناهُ محمرّتين فيما العرقُ يسيلُ على وجهه. أمّا شعرهُ الأشقر فقد تلبّد بالعرق والغبار. وعلى الرغمِ من أنّه كان يصيخ بسمعهِ ترقّبا، إلاّ أنّهُ كانَ يسمعُ صوتَ صافرات الإنذار وراءهُ بصعوبة بالغة. ومع ذلك، شعرَ بأنّ الطّريقَ المعبّدة على نحوٍ سيّء لن تمكنّ مطارديه من إطلاق النّار عليه من تلك المسافة. بعد ذلك، رأى درّاجة ناريّة تسيرُ أمامهُ مباشرةً فانحرف يسارًا كي يتجاوزها ولكنّ الدرّاجة حافظت على سرعتها، قبل أن تفجّرَ رصاصة زجاج سيّارته الأماميّ ويتلقّى وابلاً من شظايا الزّجاجِ المطحون على شكلِ مكعبّات بلوريّة صغيرة، مباشرةً في وجهه. لقد حافظت الدرّاجة النارّيّة على ثباتها تقريبًا مقارنةً بسيّارة «البويك» وكان في مقدور «بارّو» أن يصوّب بدقّة كما لو أنّهُ في حقل رماية. ثمّ رأى «لي» وميضَ الرّصاصة الثانية ثمّ الثالثة، ولكنّ الرصاصتين أخطأتا الهدف. عند ذلك، اضطرّ إلى اتخاذِ مسارٍ متعرّجٍ طوال الطريق كي يتفادى الرّصاص، ولكنّ الزجاجَ الأماميّ تلقّى رصاصة مجدّدًا، قريبًا من وجهه هذه المرّة، فشعرَ بتيّار هوائيّ يندفع

بعنفٍ من الثقبِ المستدير الذي خلّفتهُ الرصاصة المعدنيّة الكبيرة من عيار 45 ملم.

بعد ذلك شعرَ بأنّ سرعة سيّارتهِ تزداد، وأحسّ أنّها اقتربت من الدرّاجة الناريّة، قبل أن يدرك فجأة أنّ العكس هو ما حدث، وأنّ «كارتر» هو من أبطأ سرعة درّاجته. حينئذٍ، ارتسمت على فمه ابتسامة مبهمة وارتفعت قدمهُ ببطء عن دوّاسة السرعة. كانت المسافة بين العربتين الآن أقلّ من عشرين مترًا، ثمّ تناقصت إلى خمسة عشرة، فعشرة أمتار، قبل أن يضغط «لي» فجأة على دوّاسة السرعة. لقد رأى وجه «بارّو» قريبًا منه قبل أن يهتزّ بعنف ورصاصة أخرى تخترقُ كتفه الأيمن. ثمّ تجاوز الدرّاجة النارية وهو يصرّ على أسنانه من الألم كي لا يفلت المقود، وما إن استقرّت السيارة أمام مطارديهِ حتّى شعر أنّهُ في مأمنٍ من رصاصاتهم.

فجأة انحرفت الطريقُ لتعودَ مستقيمة مرّة أخرى. كان «كارتر» و«بارّو» مستمرّين في ملاحقتهِ. وعلى الرّغم من ثبات السّيارة، إلاّ أنهُ كان يشعرُ الآن في أطرافهِ المصابة بأدنى هزّة في الطريق. تطلّع إلى مرآة السيّارة الخلفية. كان بإمكانه رؤية الرّجلين اللّذين يطاردانه، ثمّ رأى «كارتر» يبطئ من سرعته قبل أن يتوقّف عند حافة الطريق، كي يمكنّ «بارّو» من تغيير وضعيّة جلوسهِ طالما أنّهما لم يعودا قادرين على المخاطرة بمحاولة تجاوزهِ.

على بعد مائة متر، تفرّعت الطريقُ إلى اليمين، ليبصر «لي» ما يشبهُ البناية. ودونَ أن يبطئ من سرعتهِ، اندفع «لي» عبر الحقول

المحروثة حديثًا التي تحاذي الطرّيق. قفزت سيّارة «البويك» قفزة هائلة وكادت تدورُ حول نفسها لكنّه نجحَ في ترويضها وسطَ أنين قطعها المعدنيّة، قبل أن يوقفها أمام باب إسطبل. ودون أن يضيع ثانية واحدة، نزلَ منها مكشّرًا من الألم وبلغ الباب. كان الألمُ الممضُّ يمزّقُ كلتا ذراعيه دون توقف كما شعرَ بأنّ جريان الدم عاد إلى انتظامهِ داخل ذراعهِ اليسرى التي كانت ما تزالُ مشدودةً إلى صدره، فأصدرَ تأوّهاتٍ متألّة. ثمّ اتجه نحو سلّمٍ خشبيّ يقودُ إلى العليّة، هنالك أينَ تخزّنُ الحبوب، ورمى بنفسهِ فوقَ درجاتهِ. كاد أن يفقد توازنهُ أثناء صعوده، لكنّه تمالك نفسه وهو يثني جسدهُ إلى الأمام بحركةٍ رياضيّة وأمسكَ بإحدى الدرجات الخشبيّة العريضة والخشنة بين أسنانهِ. بقي هناك في منتصف السلّمِ لاهثًا وقد مزّقت شظيّة خشبيّة شفتهُ، ليدرك مدى صعوبة الإطباق بفكيّه على الدرجة الخشبية شاعرًا بمذاق الدمِ الدافئ والمالح في فمه، ذلك الدمُ الدافئ والمالح الذي شربهُ من جسد «لو»، من بين فخذيها المعطّرينِ بعطرٍ فرنسيّ لا يلائمُ سنّها. لقد رأى مجدّدًا فم «لو» الملتوي وتنوّرتها الغارقة في الدماء، ومرّة أخرى، تراقصت أمام ناظريهِ بروق لامعة.

واصل صعود الدرّجات الخشبيّة ببطء وألمٍ فيما تدوّي في الخارجِ صافرات إنذار عربات الشرطة التي اقتربت. امتزجت صرخات «لو» بأصوات صافرات الإنذار، ليعود المشهدُ بأسره إلى رأسه بوضوح، لقد شرع مرّة أخرى في قتل «لو» ليستحوذ عليه الشعور نفسهُ والنشوة نفسها، تلك التي أحسّها وهو يصلُ إلى أرضيّة العليّة. وعندما توقفت الضوضاءُ في الخارج، زحفَ بصعوبة نحو نافذة

العليّة دون أن يستعين بذراعهِ اليمنى التي كانت أدنى حركة تسبب لها آلاما فظيعة. وأمامهُ، على مرمى البصر، رأى الحقول الصفراء تمتدُّ، فيما مالت الشمسُ إلى المغيب، بينما كانت ريحٌ خفيفة تحرّكُ الأعشاب على حافة الطريق. كانت دماؤه تسيلُ داخل كمّه الأيمن وتغرقُ جسدهُ، وشعر بقواه تخذلهُ شيئا فشيئًا قبل أن يبدأ جسدهُ في الارتجاف، وقد استولى الخوفُ عليه.

كانت الشرطةُ تحيطُ بالإسطبل في تلك اللّحظة. لقد سمعهم ينادونهُ وحاولَ أن يفتح فمهُ على اتّساعهِ، لكن صوته بقي حبيسًا. ومع أنّهُ عطشانٌ ومبلّل بالعرقِ، إلاّ أنّهُ أراد أن يتحدّاهم ويشتمهم، ولكنّ حلقهُ ظلَّ جافّا[1]. ثمّ رأى دمه يتحوّلُ إلى بركة صغيرة ويصلُ إلى ركبتهِ، فارتجفَ مثل ورقة في مهبّ الريحِ وصرَّ على أسنانهِ، وعندما سمع دوّي الأقدام فوق درجات السلّم، شرعَ في الصرّاخِ، صراخٌ مكتوم في أوّل الأمر، سرعانَ ما ارتفعَ واحتدَّ. ثمّ حاول أنَ يسحب مسدّسهُ من جيبهِ قبل أن ينجحَ في ذلك شاعرًا بألمٍ لا يطاق. عندئذٍ، جرّ جسدهُ نحو الجدار، أبعد ما يمكنُ عن الفتحة التي سيدخلُ منها رجال الشرطة، ومع أنّهُ كانَ يمسك المسدّس في يدهِ إلاّ أنّه شعر بأنّه عاجزٌ عن إطلاقِ النار.

فجأة، توقفت جلبة رجال الشرّطةِ تمامًا. حينئذٍ توقّف عن الصراخِ وسقط رأسهُ على صدره، قبل أن تتناهى إلى سمعهِ أصواتٌ مبهمة. وبعد لحظاتٍ، انهالت عليهِ زخّات الرّصاصِ لتصيب وركه.

---

(1) لم ترد هذه الجملة في النسخة الفرنسيّة، لكننا قمنا بتثبيتها في ترجمتنا، لأنّ النسختان هما بالنهاية لكاتبٍ واحد.

استرخى جسدهُ في تلك اللّحظةِ وهمد ببطء فوق الأرض، وخيطٌ من اللّعابِ يسيلُ من فمهِ ويسقط على أرضّية العليّة، فيما تركت الحِبالُ التي استخدمها لتثبيت ذراعهِ اليسرى، آثارًا زرقاء عميقة فوق لحمه.

(24)

وعلى الرّغمِ من مقتلهِ، قام أهالي البلدة بشنقهِ، لا لشيء إلاّ لأنّهُ زنجيّ، وقد تعالت ضحكاتهم السّاخرة من عضوهِ التناسليِّ الذي ظلّ بارزًا من تحت سروالهِ.

بُوريس فيان

عَلى قُبُورِكم

أن تتجاوزَ الخطّ، هو أن تكونَ رجلاً أبيض البشرة ولكن بجيناتٍ ودماءٍ سوداء، في مجتمعٍ لا يحبُّ أن يرى الزنوجَ خارجَ القفص. تلك هي القضيّة التي تطرحها رواية «على قبوركم» لبوريس فيّان، رواية شكّلت لحظةَ صدورها في العامِ 1946، زلزالاً داخلَ الأدبِ الفرنسيّ المحافظِ والمطمئنِّ إلى تمثّلاتهِ للعالم، فقد مثّل بوريس فيّان بلغتهِ الصريحةِ حدّ الوقاحة، والغريبة حدّ الشاعريّة، نوعًا جديدًا من الكتابةِ وصل إلى حدّ وصفهِ بأنّهُ كاتبٌ قادم من كوكب آخر.

ولعلّ ما يثيرُ الغرابة في هذه الرواية، هي أنّها كانت مدينة بنجاحها الكبيرِ، إلى ضابط فرنسيّ أقدمَ على قتلِ عشيقتهِ تاركًا قربَ جثّتها كتابَ فيّان على صفحةٍ محدّدة يقتلُ فيها البطل عشيقتهُ بنفس الأسلوب.

لقد عرفَ بوريس فيّان كيف يمزجُ في رائعتهِ «على قبوركم» بين العنف والجنسِ والتصدّي إلى العنصريّة في بوتقة واحدة، كاشفًا بذلك عن إدانةٍ مبكّرة لعالم تتواشجُ فيهُ الخطوطُ السوداءُ والبيضاءُ وتتعالقُ حتّى تصبح الكلمة الصريحة هي الرصاصة الوحيدة القادرة على إحداثِ فجوةٍ فيه.

وليد أحمد الفرشيشي

ISBN: 978-9938-24-054-2